بداية النهاية

الفصل الأخير

رواية

محمد حبيب

كل الحقوق محفوظة

دار لوغاريتم للنشر والتوزيع
رقم الإيداع: 23102/ 2018
I.S.B.N: 978-977-6642-48-5
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد.
المراجعة اللغوية: أميرة أسامة.
الإخراج الفني: ضياء فريد.
المديـــر العـام: إيناس ناصر.
المدير التنفيذي: شادي أبو شهبة

Logarithpublish@gmail.com
01281052824

إهداء

إلى من تركني فى منتصف الطريق أحبو وحيدًا

إلى عكازي الذى تآكل فجأة دون إنذار
قبل نجاحى بسويعات

إلى صديقي الأول و ملاذي الأخير
والدي «فتحي أحمد حبيب»

رسالة شكر وتقدير

إلى كل من وقف بجانبي منذ البداية وساعدني في إخراج روايتي الأولى إلى ساحة المعرفة، أود أن أشكركم على كل الدعم والتشجيع الذي نلته منكم، حيث أنه كان السبب الأساسي وراء إنجاز هذا العمل.. وهذا الإهداء لن يعبر بشكل كامل عن مدى تقديري لكم ولشخصكم ومدى حبي لكم.

- أ. رشا إسماعيل «**المعيدة بقسم الصحافة بإعلام أكاديمية الشروق**».
- أ. كريمان حبيب.
- سلمى فايز.
- آية عطوه.
- منة الله محمود.
- محمد مرزوق «**مصمم الغلاف الأول**».
- وخالص شكري وامتناني إلى أمي بصفة خاصة وأسرتي عامة..

عزيزي القارئ

قبل أن تبدأ في قراءة هذه الرواية، أود أن أخبرك أن هذا العمل حقيقي وتم نقله من الكشكول الخاص بالبطل كما كان مكتوبًا فيه، وإن وجدت بعض الأخطاء الإملائية أو في طريقة السرد، فهي ليست خطأ كتابة بل هي كما دونها البطل في الفصل الأخير من روايته، ولم يتم التعديل والإضافة عليها..

تمهيد

إذا كان الحُب الذي يكمُن داخلنا تجاه شخصٍ ما حقيقيًا ونابعًا من أعماقِ قلوبنا، وتبادلنا هذا الحُب مع نفسِ الشخص لسنواتٍ عديدة كان يغلب عليها طابع السعادة، وبمرور الوقت وبدون مقدمات يهجُرنا هذا الشخص بعد أن تعودنا على وجوده.. لسببٍ يراهُ هو أنه لم يكن لهُ يدًا فيه بل الاختيار كان رغمًا عنه، وإنه حاول العودة من جديد ولكن...

نبدأ في حالة من الضعف وتجميع الذكريات، ومن ثم يتطور الأمر ليتحول إلى صراعات نفسية والتي تُمهد لبداية مرحلة جديدة تُدير وتوجه شئون حياتنا.. مرحلة إطلاق الخيال وإعمال العقل الباطن، مما قد يؤدي إلى حدوث أشياء قد تضع مُجريات حياتنا في مهبِ الريح ومهما حاولنا جاهدين لتحريك المياه الراكدة مجددًا، نعود إلى نقطة البداية في كل مرة وكأن شيئًا لم يحدث..

مقدمة

أنا أشعر بيد الحزن تطوق عنقي وتضغط عليها لتقتلني، أبكي حزنًا وليس ضعفًا وأنتِ تشاهدين من بعيد! بإمكانك فك يد الحزن عن عنقي ولكنك لا تبالي لأوجاعي ورِوحي التي أوشكت على الخروج من جسدي الذي أصبح متهالكا من الحزن عليكِ قبل أن يتم عامه الثلاثيين..

روحي عالقة بين السماء والأرض، فأنا مكتئبٌ حزينٌ لا يدخل قلبي الفرح منذ أن رحلتي وكأن قلبي أغلق شرفته التي يتسلسل منها الفرح، وكأنك سلبتِ كل مفاتيح الحياة معك وتركتيني محطم أعيش على بقايا الذكريات، يشفق عليَّ القاصي والداني وكأنني طفل مشرد أشتاق إلى الإحساس بمعني الحياة، أشعر وكأنني مت منذ أن تركتيني لا أشعر بملذات الحياة مثل كثيرًا من الناس.

تمر الأيام مسرعة وأنا ما زلت بمكاني لا تحركني سرعة الأيام، لطالما ظننت أن في هذه الأيام سنكون معًا نتحاور ونشكو همنا لبعضنا حتى يزول، ولكن تركتيني أنا والهم وجهًا لوجه أندب حظي وتعاستي.. أتذكري عندما كنا معًا نتقاسم الأوجاع؟، اختار القدر أن تهجريني وأصبحت أنا من بعدك يتيم لا قلب يسعني ولا عقل يدرك ما بي ولا يد أشعر عند لمسها بالأمان والراحة.

بداية جديدة؟ هل قلبي وعقلي قادران على بداية جديدة؟ أم البدايات الجديدة كذبة نصدقها لنخلق شعاعًا من النور يشق العتمة؟

الفصل الأول

وِحدة وذِكريات

«اعتقادك بأنك وحيدًا واستسلامك لهذا سيجعلك لا تستطيع التخلص من الشعور بالوحدة».

تدري يا عزيزتي كم تألمت! أعاني يوميًا وبداخلي ممزق أنا أشعر وكأنني أحتاج إلى ترميم، أحتاج إلى أن أعود للسنين الماضية من جديد إلى أيام الفرح والسعادة ليذوب حزني الملازم لي، تختلط على مشاعري عندما أتذكر الماضي أبكي تارة وأضحك تارة أخرى ولا أعلم ماذا أفعل في شبح الذكريات الأليم، حاولت مرارًا وتكرارًا أن أبدأ من جديد لكنني في كل مرة أفشل عن المرة السابقة حتى تيقنت أنني فاشل ليس بمقدوري أن أبدأ مجرد البداية من جديد وأنسى الماضي الذي أحمله في قلبي وما أثقل هذا الماضي على صدري!

ماذا أفعل وكل شعوري يتلخص في أنني لا أستطيع التحرر من قيود الذكريات؟

أصبحت غرفتي المظلمة كل ليلة تضيق عليّ كما يضيق القبر وظلماته على الميت لا جديد يذكر في حياتي، فكرت كثيرًا في الانتحار والتخلص من هذه الحياة المرهقة، ولكن أتخلص من حياة مرهقة وأذهب إلى الموت بطريقة تجعلني في جحيم أبدي؟ فماذا لو كان الانتحار حلالًا!

الحياة أصبحت كئيبة والمستقبل في بلادنا أصبح مشوه الملامح، فماذا أفعل في ماضي يضيق صدري ومستقبل يرهق عقلي؟ أسئلة كثيرة تدور في ذهني وأشعر أن عقلي على حافة الجنون.

تذكري حين كنا معًا في بداية الطريق وتحدينا الأزمات وتخطينا العقبات كنا نتحدث في كل الأوقات ونقتل الهم والحزن، فأنا لا أدرك إلى الآن كيف تركتيني وتركتِ خلفك قلبًا أحبك من كل أعماقه! كيف أتخيل أن هذا الوجه البريء الذي تعلقتْ روحي به كما يتعلق الرضيع بأمه أن يذهب بعيدًا عني؟ كيف ماتت تلك الأحلام التي كنت دائمًا أود أن أراكِ فيها امرأة ناجحة؟ أتدري أنني إلى الآن يا حبيبتي ما زلت أشعر أنني يتيم محروم من حنان أمه وسند أبيه.

فأنا ما زلت أذكر عندما كنا نذهب معًا إلى المدرسة ونتحدث حتى الوصول، وكنا نترك المذاكرة والواجبات ونتحدث من بداية اليوم حتى آخره، ونتحدث في كل شيء وكان الملل شعورًا عابرًا في علاقتنا من كثرة الحديث واللقاء الذي كنت أحسب الساعات

قبله لإراكِ فيا لها من لهفةٍ تقتلني شوقًا، كانت الأيام تمر بيننا ولا نلمحها كأن اليوم دقيقة وليس ٢٤ ساعة، فأنا أتذكر تفاصيل لن تتوقعي أن أتذكرها..ألم تشعر روحك بهذه الذكريات مثلي؟ أم حقًا روحك لا تحنُّ إلي؟

أصبحت أشعر وكأن هناك شبح يراقبني في الظلام وفي كل مكان أسمع صوته يناديني وكأنه متعاطفٌ معي، في أول الأمر كان قلبي ينتفض حين أسمع أصواتًا لا أعلم مصدرها وأرى أشياءً لجزء من الثانية ومن ثم تختفي فأنتفض من مكاني، ومع تكرار الأمر بدأت أشكك في عقلي! هل بالفعل هذه أولى درجات الجنون؟ أم بالفعل هناك شبحٌ يراقبني؟ أم هذه مجرد هلاوس؟

أتدري يا حبيبتي أنا الآن تعودت على وجود هذه الأصوات والأشياء التي أراها أصبح قلبي لا ينتفض، صار شيئًا مألوفًا بالنسبة لي بعدما كان مرعبًا جدًا، تعودت عليه كما تعودت على غيابك. فأنا منهك أشعر أني أريد أن أدخل في غيبوبة طويلة أستيقظ منها بذاكره جديدة لا يوجد بها شيء من الماضي، ذاكره أملأها أنا بالذكريات السعيدة واللحظات المبهجة تكوني معي لا تفارقيني فيها حتى الموت.

أنا في ظل غياب دور الأصدقاء في حياتي وغياب لغة الحوار معي، وعدم إحساس الأشخاص المحيطة بي بما يدور في داخلي، وجدت أن القط الذي أكمل عامه الثالث في غرفتي يشعر بي ويداعبني؛ ليخرجني من همومي، وفي كثير من الأحيان أشعر أنه

يتكلم معي بنظراته وحركاته، فهو ينتظرني على باب شقتي حين يسمع أصوات قدمي وأنا أصعد درجات المنزل بلهفة عاشق لم يرَ محبوبته منذ فترة، رغم أنني لم أغب عنه سوى بضعة ساعات، فبرغم أنه حيوان إلا أنه يشعر بي وبأوجاعي أكثر من أصدقائي الذين طالت عشرتهم!

كم تمنيت أن يحبني بني آدم حبًا مثل هذا الحب الذي يجعل قلبي يرفرف من السعادة، حبًا صادقًا ليس لمصلحة ما أو لأغراض غير معروفة فهو يحبني ولا ينتظر شيئًا مني سوي أن أداعبه وأبادله هذا الحب..

غاب عني الجميع وبقيت وحيدًا اسأل نفسي: أي ذنب فعلته لأبقى مدفونًا وحيدًا بدون رفيق؟ يتردد هذا السؤال في بالي كثيرًا، وأجد أن الإجابة واضحة أمامي ولكني أتعمد عدم رؤيتها: إنني لا أجيد اصطناع المشاعر مثلهم، لا أعرف طريقًا للنفاق، لا أطيق المشاعر الزائفة..

فأنا أعرف نفسي تمام المعرفة وأعرف أنهم لن يستطيعوا تحمل عفويتي في الحديث ولن يستطيعوا تحمل أسلوبي الذي أراه أنا مناسبًا لشخصيتي، فأنا من الذين يدفنون أوجاعهم وأحزانهم بداخلهم لا يفصحون عن أسباب الخصام والخلاف إلا في حالات نادرة تكاد تكون منعدمة، نعم هذا أنا وأتقبل نفسي بهذا الوضع ومتصالح مع نفسي لدرجة كبيرة؛ لذلك أجد نفسي وحيدًا دائمًا ما من أحد يشبهني ليجيد التعامل معي.

فكلما زاد عدد السنوات التي تمر عليَّ فإن الأشياء التي تؤرقني تبدو لي أصغر أهمية وأكثر تفاهة، حتى سنوات الطفولة التي كانت تبدو جميلة وبها الذكريات السعيدة؛ أصبحت الآن لا شيء سوى لحظات تمر أمامي سريعًا في عدة ثواني، كل ثانية منها مجرد وهم وانتهى، أرى العالم الآن كما أنه مجرد سراب.

ليالي قاسية لعينة مرت وأنا منشغل بالتفكير في أمور كان من المفترض أن أمحوها من ذاكرتي تمامًا، لكن طول وقت الوحدة ذاكرتي تداعبني مداعبة أكرهها، فأنا عليّ أن أتخلص من هذه الوحده؛ لأستطيع التعامل مع الناس من جديد.

إن الاستسلام للوحده والحزن كالاستسلام في الحرب الذي يعني أن تعيش تعيسًا معتقلًا أو تموت عقابًا لك، وها أنا الآن أوشكت على الاستسلام أحارب بكل ما أوتيت من قوة لأقتل الوحدة ولكن أحتاج إلى مساعدة في هذه الحرب الصعبة؛ لأنني لا أقوى على هذه المواجهة وحدي! سأُهزم حتمًا فالمواجهه غير متكافئة تمامًا، كيف أواجه الوحدة والذكريات والحزن وأنا وحدي؟ لا يعاونني سوى صديقي القط!

أجلس في شرفتي بالساعات أستمع فيها إلى أم كلثوم وفيروز أملًا فيهم أن يمروا معي فوق الحزن، لكنني دائمًا ما أجد أنهم يذكروني بالماضي من جديد فأم كلثوم تقول في أغنية إنت عمري: «**علموني أندم على الماضي وجراحه**» فيدق قلبي شوقًا إليكِ يا حبيبتي وكأن أم كلثوم تريد أن تبقي الذكريات بيننا حية

خصوصًا في أغنية بعيد عنك حين قالت: «**نسيت النوم وأحلامه نسيت لياليه وأيامه، بعيد عنك حياتي عذاب ما تبعدنيش بعيد عنك**» أشعر بالدمع ينهال من عيني عند سماع هذه الأغنية وأتذكر ذكرياتنا معًا، حين **قلت لكِ:** ليلى.. هو ممكن يجي يوم وتسبيني لوحدي؟

وقلتِ: لا، أنا عمري ما هعمل كدا ومتقولش كدا أنا هفضل معاك لحد ما نموت سوا.

لماذا ذهبتٍ وتركتيني ولم تكملي عهدك معي؟

كنت أستمع إلى كوكب الشرق في كثير من الأوقات وأنا أتحدث معك وقلبي مليء بالفرحة وكلي آذان صاغية إلى صوتها العذب وهي تردد كلمات الحب كنت أشعر أنها تتحدث عنا وتقصدنا بهذه الأغاني.

أنا إلى الآن يا حبيبتي أجلس في شرفتي وأناجي طيفك وفيروز تشعر بما أشعر به وتقول: «**زوروني كل سنة مرة حرام تنسوني بالمرة**» وكأن وحدتي في شرفتي التي كانت مكان السعادة لي أصبحت مكان الذكريات الآليمه، روحك في كل مكان، حديثك في آذاني يتردد دائمًا لا يفارقني، ضحكتك في ذهني لا تغيب، عيناكِ الصغيرتان أشعر أنهما حولي، أنظر في عيون الناس لأراهم، نعم، نعم.. ما زلتِ بقلبي وأكتب إليك كل يوم وأنتِ لا تشعرين بروحي الممزقة، يا الله باعد بيني وبين هذه الذكريات إنني أموت

وجعًا وهي لا تشعر فكلما تذكرت وعودنا أشعر وكأن سيوفًا تمزق في قلبي.

لا أدري كيف أضحك مع الزملاء في العمل أو أضحك لأي سبب بعد أن هجرتيني! إن الضحكة التي كانت مرسومة على وجهي كنتِ أنتِ مصدرها، الضحكة والحب والتفوق والمذاكرة وكل شيء جميل كان من أجلك أنتِ ليس من أجلي!

نفسي قادرة على أن تفتح صفحة جديدة في حياتي وتمتزج بالناس من جديد وتخالطهم لكن عقلي لا أستطيع أن أخرس صوته العالي وأن أمحو الصور التي يعرضها أمامي عندما أتخذ خطوة تجاه فتح هذه الصفحة، وكأنه أقسم أن لا يتركني إلا ممزقًا في مدفني أو مسلوبَ العقل في إحدى مستشفيات الأمراض العقلية، فعقلي هذا أشعر أنه مثل ذكرياتك تمامًا يا حبيبتي ترهقني جدًا ورغم ذلك لا أطيق الاستغناء عنها، من منا يستطيع أن يحيا دون عقل حتى لو كان يألمه ليلًا ونهارًا؟

كنت دائمًا لا أصدق (شارلي شابلن) حين يقول: «**التعلق هو جزء من الموت**»، لكن مع مرور الزمن تيقنت أن التعلق هو الموت نفسه وليس جزءً منه، ما أقبح أن تتعلق بإنسان وتضع فيه كل أملك وحبك ويتركك لأي سبب كان!

أتذكر الكثير من الأحلام الذي حلمناها سويًا والكثير من العهود وحديثنا منذ عامين في ليلة من ليالي شتاء فبراير.

حين **قلت لكِ:** إحنا كملنا ٣ سنين ونص مع بعض من كام يوم بس، ولسا المشوار طويل ولازم نبقى مع بعض عشان منضيعش وطول ما إحنا مع بعض محدش هيقدر يهزمنا أبدًا.

وقلتِ: أنا متحمسة وجاهزة ونفسي أكمل معاك العمر كله لحد لما أموت، وهنواجه الناس كلها مهما كانت قوتهم وهنتجوز وهنعيش في سعادة غصب عنهم كلهم.

قلت: طبعًا أول بنت هنجبها لازم تبقى على إسمك عشان تطلع جميلة وعنيدة كدا زيك.

ابتسمتِ وقتها وقلتِ: لا أنا عايزها تكون على اسمي بس، لكن تطلع شبهك في كل حاجه.

ضحكت أنا بصوت عالي وقلت: حرام عليكي لو شبهي مش هتتجوز أبدًا.

وغضبتِ أنتِ وقلتِ: أنت لازم تكون واثق في نفسك، إنت أحسن واحد في الدنيا دي كلها، أنت مش بالشكل اللي مصورهولك عقلك إفهم بقى.

ابتسمت وقتها وقلت لك: أنا بحبك.. إنتي مصدر سعادتي وكل حاجه ليا في الدنيا الكئيبة دي.

وكان ردك يفرح القلب حين قلتِ: أنا بحبك أكتر من كل حاجه إنت بالنسبالي الأمان المكان اللي بالجأ له في كل أحوالي وبلاقيه مستنيني سواء كنت مبسوطة أو حزينة.

وانتهى حديثنا عندما دخلت والدتها واضطررنا إلى إنهاء الحديث وكلي شغف لرؤيتها في اليوم الثاني، وفي صباح اليوم الثاني بالفعل رأيتها وهي ذاهبة إلى درسها أنتظرها من بعيد لأراها وأبتسم وتراني هي الأخرى وتخجل وتضع عيناها أرضًا حتى لا يلاحظ الناس أننا نتبادل النظرات.

عندما أجلس وحيدًا وأتذكر المحادثات واللقاءات والغراميات التي كانت بيننا أشعر بدقات قلبي تتزايد بزيادة دموع عيني وأن قلبي على وشك الخروج من بين ضلوعي وأنفاسي تزداد ويعلو أصواتها كأنني عداء أفريقي في سباق الألف ميل، فبدونك أنا في تعداد الموتى، جسد على قيد الحياة وروح قتلت من التعذيب والمعاناه.. تبًا لهذا الحب الذي يسري في دمي ويسيطر على قلبي وعقلي! يا له من سم ليس بـ حب، فماذا لو كان حبي لكِ متجسدًا في رجل وقتلته وتخلصت من عناء هذه الذكريات.

وبينما أنا أجلس في الظلمة الحالكة داخل غرفتي هائمًا في همومي أسمع الأصوات التي لا أعلم مصدرها كعادتي تناديني بمسحة حزنٍ وهدوء: محمد.

فألتفت حولي مجيبًا: مين؟

ثم يختفي الصوت مرة أخرى وأشعل الإضاءة باحثًا عن المصدر ولا أجده فأعيد الظلام من جديد، ويتكرر هذا الأمر معي في الليلة الواحدة ما يقارب الخمس مرات، هو الأمر الذي دفعني أن أستشير طبيب نفسي لأطمئن على سلامة عقلي.

ذهبتُ إلى عيادة دكتور «**طاهر**» النفسية والعصبية قمت بدفع ثمن الكشف لمساعد دكتور «**طاهر**» الذي يظهر عليه أنه في أواخر الخمسينات من عمره وجه بشوش ورغم ذلك نبرة صوته بها الحزن وقلة الحيلة وكأنه يحتاج هو الآخر لاستشارة الطبيب الذي يعينه.

إضاءة العيادة خافته وموسيقى هادئة متسلله من غرفة الدكتور التي أجلس أمامها جعلتني أتذكر المرة الأولى للقاء في المدرسة الإعدادية عندما رأيتها وشعرت أن الزمن توقف عند هذه اللحظة لدرجة أن عيني لم تفارق وجهها الجميل لمدة ربع ساعة كاملة، كنت في الثالثة عشر من عمري وقتها وليس لي تجارب حب سابقة لكنني أحسست وكأنني شاعر يملك من العمر خمسين عامًا مرت عليه العديد من التجارب، تحدثت إلى صديقاتها التي كانت قريبة مني في ذلك الوقت.

قلت لها: مين الحلوة اللي كانت واقفه معاكي في الفسحة النهارده؟

ردت ضاحكة: دي «**ليلى**» من أقرب الصحاب ليا، بتسأل ليه؟

أجبتها ونار الحب تشعل قلبي: أنا بحبها وبحبها أوي ومش عارف ازاي حصل كدا!

ظهرت علامات الدهشه على وجها وقالت: بتحبها!! ازاي وانت لحد دلوقتي أصلًا مكنتش تعرف اسمها إيه؟

أجبتها بعجلة قبل دخول المعلم إلى الفصل: إيه ماسمعتيش عن حُب من أول نظرة يعني؟

صوت «**عزيز**» مساعد الدكتور يقطع حبل الذكريات التي كان يمر أمامي وهو يقول: أستاذ محمد انت كويس؟

تعجبت من سؤاله وقلت له: أيوه أنا تمام، بس انت بتسأل ليه؟

قال: أنا ناديت عليك أكتر من ٣ مرات وانت باصص للحيطه ومركز ومعزول عن المكان كله!

أجبته وأنا في حيرة: أنا آسف بس سرحان في هموم الدنيا والمشاكل.

رد بابتسامه جميلة: كان الله في عونا كلنا يا أستاذ محمد والله.

أقف على باب غرفة دكتور «**طاهر**» استأذن للدخول وألقي عليه التحية، قام من مكانه مبتسمًا هو الآخر، وقال: أهلًا بيك يا أستاذ محمد اتفضل أقعد.

ابتسمت له وجلست أمام مكتبه المُرتب بشكل جميل.

وقبل أن أتحدث معه في شيء قال لي: عايزك تنسى إن أنا دكتور وانك جاي محتاجني أعالج لك مشكلة تعباك أو مأثره عليك.

أومئ برأسي موافقًا مع ابتسامة بسيطة، تبادلنا الصمت لمدة خمس دقائق فهز رقبته وبدء تشغيل مقطوعة موسيقية لعمر خيرت.

ثم بدأت أنا بالحديث قائلًا: أنا بتقطع ومتدمر حاسس إن روحي هتطلع مني، الذكريات لما بسرح فيها بتقتلني من اللهفة والشوق للرجوع تاني، الوحدة يا دكتور، أنا بقيت لوحدي مبقتش عايش أنا بقيت زي الطفل اللي أهله وأصحابه كلهم ماتوا، عايش من غير حد يخفف عني الوجع اللي ملازمني دايمًا، أنا بقيت أسمع أصوات غريبة بالليل في أوضتي بتنادي عليا بنبره هادية وحزينة وبشوف أشخاص ملهمش ملامح لمدة كام ثانية وبيختفوا من قدامي ومعرفش إيه دا! هو دا جن وأنا حصل لي مس بسبب إني لوحدي؟

ضحك الدكتور وقال في هدوء: علم النفس مش بيعترف بالحاجات دي، اللي انت بتشوفه في أوضتك هو اللي انت بتتمناه يحصل لك في الواقع، لكنه مجرد تخيلات بيصورها ليك عقلك الباطن زي الأصوات اللي بتناديك مثلًا.. انت بتتمنى إن يكون فيه حد يحس بحزنك في الوقت المتأخر دا ويواسيك ويطمنك ودا أدى إلى اصطناع عقلك الباطن للصوت دا؛ عشان يصدر لك إحساس إنك مش لوحدك وفيه اللي بيحس بآلامك، ونفس الكلام الأشخاص اللي بتشوفهم من غير ملامح وبتختفي تاني.. هما بردو الأشخاص اللي نفسك يكونوا جنبك طول الليل يقاسموك وجعك

اللي معذبك، لكن قولي أنت سألت نفسك مرة واحدة بس قبل كدا ليه الأشخاص اللي بتشوفها مش متحدد ملامحها؟

توقفت هنا وسألت نفسي نفس سؤال الدكتور ونظرت إلى الأرض وأنا أهز قدماي في توتر لمدة دقيقتين وقمت بهز رأسي يمينًا ويسارًا مجيبًا بالنفي بدون أن أنطق بكلمة واحدة..

أكمل دكتور طاهر حديثه قائلًا: من الصعب جدًا على كتير من الناس إنهم يعيشوا لوحدهم بدون جليس، وإن يكون أنت ونفسك بس اللي بتحملوا هموم بعض، وهو دا اللي بيأدي لخلق حالة من الاكتئاب بتخلق الخيالات والحاجات اللي بتحصلك دي كلها.

تبادلنا الصمت هذه المرة مدة أكثر من المرة السابقة ونحن نستمع إلى الموسيقي، لكن شق الصمت صوت هاتف دكتور «**طاهر**» الذي كان يبدو أنه يتحدث إلى زوجته في حديثٍ دام لدقيقتين فقط.

ثم استأذن الدكتور في كل أدب وتقدير قائلًا: أنا آسف جدًا يا أستاذ محمد ابني الصغير تعبان ولازم يتنقل المستشفى حالًا ممكن نكمل في وقت تاني؟

أجبته سريعًا دون تردد: اتفضل يا دكتور ابنك محتاجك، نتكلم تاني قريب.

استئذنت بالخروج وأرى ملامح القلق والإحراج على وجه طبيبي وهو يجمع أشيائه الخاصه من مكتبه بشكل سريع، وذهبت

أنا إلى منزلي الذي عند دخوله أشم رائحة البؤس في كل أركانه، دخلت إلى غرفتي في صمت دون أنا أتحدث إلى أبي وأمي وأغلقت باب الغرفة ومعي صديقي القط وجلست أمام مكتبي أمسك برواية أقرأها لمعشوقي الروسي «**دوستويفسكي**» وغلب عليّ النوم من شدة التعب النفسي الذي أرهق جسدي في طريقه.

رأيتها مجددًا في أحلامي وكأن الذكريات تركض خلفي لا أستطيع الفرار منها حتى في نومي كانت تأتيني بردائها الأزرق بابتسامتها الفاتنة تقول لي: إنت وحشتني أوي، ليه مبتسألش عليا؟ أنا واحشني كلامنا طول اليوم.

أجبتها بنبرة صوتٍ حزين: بس انتي اللي سيبتيني أواجه الدنيا لوحدي!، عارفه أنا محتاج ليكي أوي دلوقتي أكتر من أي وقت فات، حاسس إن العالم كله بيكرهني محدش بيحبني من بعدك!

قالت: متظلمنيش أنا براقبك كل يوم وبحس باللي انت حاسس بيه وأكتر أنا وحيده زيك بالظبط، بس الاختيار كان غصب عني لو كان بمزاجي مكنتش سبتك أبدًا.. إنت أجمل حاجه حصلت لي.

قلت والدموع تملأ وجهي: يعني هشوفك قريب يا حبيبتي؟ وحشتيني مشتاق ليكي كفاية كدا.

تركتني وذهبت ووجهها حزين قائلة: ابدأ من جديد لسا في عمرك وقت تقدر تعمل كدا فيه، لو بتحبني فعلًا إرجع لحياتك في ناس كتير بتحبك.. زيي.

ناديت عليها كثيرًا بكل ما أوتيت من قوة وأنا غارق في دموعي، لكنها لم تجب النداء وذهبت بعيدًا كأنني لم أتحدث إليها..

استيقظت من نومي وأمي تدعوني للإفطار الذي أصبح بيني وبينه عداوةً، أكلت وجلست مع أبي وأمي نشاهد الأفلام الكلاسيكية ونتحدث في أمور حياتنا وطال الحديث بيننا ثم انتهى بدعوة أمي لي وتركتني ودخلت إلى غرفتها، وعدت أنا الآخر إلى غرفتي المظلمة، جلست على سريري أتذكر حلم الليلة الماضية الذي رأيتها فيه بعد غياب دام كثيرًا..

هي أول حب في حياتي كانت أجمل قصة حب يتمناها العاشقون أن تدوم بينهم، كنا نواصل الليل بالنهار منهمكيين في حديثنا عن مستقبلنا الغامض الذي نرسمه سويًا، كنا نجلس جنبًا إلى جنب في دروسنا نشجع بعضنا على التفوق وتحصيل أعلى درجات النجاح، وبعد الدروس أمشي خلفها حتى الوصول إلى مدخل منزلها وتلوح لي بيدها من بعيد بضحكتها البريئة فأبتسم لها وأذهب إلى منزلي الذي كان على مسافة قريبة من منزلها.. لماذا لم تدم هذه الأيام؟ أنا أكره القدر الذي أبعدك عني فضحكتك ما زالت تسري في عروقي، ما زلت أحلم يا حبيبتي أن تعودي بكلماتك تواسيني.

الأغاني التي كنا نسمعها سويًا أصبحت أخاف سماعها وحدي! قلبي يذوب عندما أسمعها ولو صدفة في غيابك يا حبيبتي، كم أتمنى رؤيتك ولو لثوانٍ لأقتل هذا الشوق الخبيث فأنا من اخترت أن أعيش لك وأنا من تركت حياتي في يديك حتى أنني لا أعلم ما أنا فيه الآن، هل هو وفاء لقصة حب أسعدتني كثيرًا أم استسلامٌ للأحزان والذكريات المؤلمة؟

كنت أتخيل أن غرفتي وشرفة المنزل هما من يتسببون في إحياء الذكريات داخلي، فقررت أن أبتعد عنهما بضعة أيام وأذهب إلى شقتنا الأخرى هناك في الإسكندرية أمام إحدى شواطئ ميامي وكان ذلك في نهاية ديسمبر ٢٠١٥ ورائحة الشتاء في كل مكان وكانت هذه الزيارة هي البداية..

دعوت العديد مِمَن يدّعون أنهم أصدقائي للمجيء معي لكنهم رفضوا جميعًا رفضًا قاطعًا بحجة أنني شخص كئيب لا أتحدث كثيرًا محبًا للجلوس في غرفتي أو في الشرفة التي ترى البحر، لم أعلق على حديثهم ولم أظهر لهم الوجع الذي شعرت به من حديثهم وضحكت وكأن شيئًا لم يحدث، وذهبت إلى غرفتي وأعددت حقيبة السفر الخاصة بي وودعت أبي وأمي الرافضيين لفكرة سفري وحدي من القليوبية للإسكندرية، وتركت المنزل وذهبت إلى محطة القطار، حجزت تذكرةً وإانتظرت قدوم القطار ولكن لم أنتظر كثيرًا، جاء القطار وصعدتُ إليه ووضعت حقيبتي فوق مقعدي في المكان المخصص للحقائب ووضعت السماعات

في أذني وبدأت أم كلثوم تقول: «**طول عمري بخاف م الحب وسيرة الحب**»، شعرت أن أم كلثوم تتآمر ضدي مع الوحدة لإحياء الذكرى التي لا تموت سوى دقائق قليلة، تذكرت وأنا جالس في القطار المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى الإسكندرية مع أسرتي وكانت حالتي في هذا الوقت عكس حالتي الآن تمامًا، كان حينها يغمرني شعور بالسعادة وتعبيرات الفرح تملأ وجهي وقلبي، كنا نتحدث من لحظة تحرك القطار إلى وصوله الإسكندرية وتظل تحذرني من السباحة بعد غروب الشمس حتى لا يصيبني أي مكروه، وألا أنظر إلى الفتيات المتواجدات على الشاطئ وإلا ستأتيني من بيتها لتقتلني، فأداعبها أنا قائلًا: البنات على الشط بملابس البحر حلوين أوي «**رغم أنني مهما رأيت كثيرًا لا أرى غيرها**».

فترد هي والغيرة في صوتها واضحة: لو مخرجتش من الشط دلوقتي حالًا هقفل الموبايل ومش هنتكلم تاني لحد ما ترجع لي من هناك.

فأضحك وأنا أشعر بالسعادة من غيرتها وأقول: لا لا خلاص أنا هخرج وأرجع الشقة تاني.

فأشعر بابتسامتها وهي تقول: كدا أقولك بحبك بقى.

ثم يتحول المشهد في ذاكرتي وأتذكر حين كنت على وشك الغرق في البحر وأنا بصحبة أسرتي لولا شجاعة أبي صاحب الخمسة وخمسين عامًا الذي صارع الموج وأنقذ حياتي ولم يهتم

لنفسه، وبعد أن أنقذ حياتي وحملني بين ذراعيه ليخرجني على الشاطئ أتذكر جيدًا دموع أمي ولهفتها هي وأبي وهم يحركون في ذراعي ويدي ويضغطون على صدري ليخرج الماء من فمي وفرحتهم الكبيرة بعد أن بدأت أستفيق ويعود لي تركيزي وأسمع صوت أبي وأمي وبعض الناس الذين كانوا على الشاطئ يشكرون الله بعد إنقاذي من الموت غرقًا، وأمي التي ضمتني إلى صدرها وهي تبكي وتكرر «**الحمد لله**»، وبعد ذلك ذهبنا من الشاطئ إلى الشقة وظل أبي يعطيني محاضرة كاملة في السباحة وتعليمات صارمة في التصرف عند الشعور بأن الموج يسحبني إلى داخل البحر، لكن قاطعته أمي وقالت بكل جدية: انت بتعلمه كل دا ليه؟ أنا مش هخليه ينزل البحر تاني! خلاص إحنا اتعملنا من درس النهاردا والموضوع خلص.

رد أبي: مين عارف إيه اللي ممكن يحصل في المستقبل ممكن يضطر ينقذ أرواح تانية وممكن هو يروح من غير ما نعرف؛ عشان كدا لازم يتعلم ينقذ نفسه أو غيره.

نعم.. نعم أتذكر وكأن الأحداث كانت أمس ليس من فترة تزيد عن ستة أعوام تقريبًا، فبعد أن داعبتني الذاكرة لمدة ساعتين وصل القطار محطة الإسكندرية ونزلت منه وخرجت من محطة القطار ورائحة الإسكندرية التي لها طابع خاص عندي أشمها وأشعر بلسعة هواءٍ نقي يجعلني أغلق عيني استمتاعًا بجماله، وبعد أن استمتعت حوالي عشر دقائق بالهواء أمام المحطة أوقفت

تاكسي وأخذني إلى ميامي أمام باب العمارة التي توجد بها شقتنا ثم صعدت إلى الشقة التي بعد دخولها شعرت أن الذكريات كانت في استقبالي عند مدخلها مباشرة، تذكرت غرفة المعيشة والتلفاز الذي كنا نسهر أمامه أنا وأسرتي نتحدث بالساعات؛ نضحك ونلهو، دخلت إلى غرفتي التي عند دخولها تذكرت أيام فرحي وسعادتي خصوصًا سريري الذي كنت أسهر عليه بالساعات أتحدث إليكِ يا حبيبتي فأنا أشعر أن روحك ترفرف في عالمي لتعيد لي الذكريات مرارًا وتكرارًا.

أخذت قسطًا من الراحة بعد شريط الذكريات الصغير الذي مر أمامي بعد دخولي الغرفة مباشرةً وأفرغت حقيبتي ووضعت ملابسي في دولابي وأخرجت مستلزماتي الخاصة من الحقيبة ووضعتها إلى جانب السرير وأخرجت ملابس فضفاضه أرتديتها وأخذت هاتفي المحمول وراوية أقرأها أقتل بها الوقت وأكسر بها الوحدة، فبعد جلوسي على الكرسي مباشرة سمعت جرس هاتفي يدق ،كانت أمي تطمئن على وصولي الشقة وعلى أحوالي ولم يطل الحديث بيننا وانتهت المكالمة بدعوتها لي كالعادة.

كنت أعتقد أن الذكريات ستختفي بتغيير المكان لكنني اكتشفت أن الذكريات تحيطني أينما ذهبت كأنها خيالي ،كم يكون الليل شديد العتمة والكآبة حين نفقد شخصًا تعودنا على الحديث معه كثيرًا وكأنني لا أجيد سوى العزف على أوتار الذكريات والآلام، فالذكرى الواحدة تحمل مئات الذكريات حتى

أنني قادني الظن أن أحاول أن أصنع من نفسي شخصًا حزينًا لكن حقيقة الأمر تختلف تمامًا فالذكرى هي من تركض خلفي لتصنع مني هذا الشخص الكئيب دون مجهود يذكر أبذله، حتى أنني لا أعلم من أخاطب نفسي أم أخاطب من تركتني ورحلت؟

بينما أنا أجلس في شرفة الشقة أستمتع برؤية موج البحر ليلًا ويضرب وجهي نسمات الهواء سمعت مجددًا تلك الأصوات تناديني «**محمد**» فسرعان ما تذكرت تعليق دكتور «**طاهر**» على هذه الأصوات فتعاملت بإيجابية شديدة ولم أهتم لها، وبينما أنا أمسك بهاتفي وأفتح ألبوم الصور رأيت صورةً لها لا أعلم إن كنت أقصد أن أراها أم كانت صدفة؟ وجدت نفسي بدون وعي أكبر الصورة على ملامحها وبدأت دموعي تنهال على وجهي وأنا أتذكر أن تلك الصورة أنا من صورتها عندما كنا نسير معًا على كورنيش النيل، كانت لابتسامتها مفعولًا قاتلًا على قلبي في هذه الصورة بشكل خاص التي كانت تظهر ملامحها جيدًا، وجدت نفسي أبتسم ودموعي على وجهي عندما تذكرت هذا اليوم عندما كنا معًا وأوقفتنا بائعة الورد تدعو لنا بالسعادة الدائمة وأن يبارك الله لنا في حياتنا فاشتريت منها كل الورد الذي كان معها نظير دعواتها التي شرحت قلبي، فقالت لي حبيبتي: طب ليه مجبتش واحد أو إتنين بس؟ ليه جبت كل دا؟

قلت: دعوتها لينا تستاهل أكتر من كدا، لو كنت عارف إن الورد هيخليني أشوف الضحكة الحلوة دي دايمًا كنت اشتريت كل دقيقة ورد عشان أشوف جمال ضحكتك.

ابتسمت ابتسامة خجل ونظرت إلى الأرض ولم تنطق بحرف واحد، فأكملت حديثي مازحًا: ايه دا أول مرة أعرف إنك بتتكسفي.

ردت ضاحكة وهي تضربني على كتفي: أيوه بتكسف، انت مش شايفني بنت زي أي بنت مثلاً؟

قلت: لا مش شايفك زيهم.

بدت علامات الاستعجاب على وجهها وقبل أن تنطق بأي كلمة، قلت لها: انتي أهم منهم كلهم، انتي في نظري ملكة والملكات مش بيتقارنوا بحد، عمرك لقيتي خادمة من خادمات الأميرة ديانا بتقارن نفسها بأميرتها؟

عادت ابتسامتها تملأ وجهها من جديد، لكن سألتني سؤالًا أتذكره جيدًا أغضبني وقتها.

قالت: إنت بتحبني فعلًا ونفسك نكمل حياتنا مع بعض لحد ما نموت ولا انت بتتسلي معايا وبعد فترة هتسبني لما تزهق زي رجالة كتير؟

ظهرت على وجهي علامات الغضب وأجبتها بكل جدية: انتي بتهزري؟ انتي فعلًا بتظني فيا الظن دا؟ إحنا مر وفات علينا مشاكل كتير كان من السهل عليا وقتها إني أسيبك وفضلت متمسك بيكي! انتي بتساويني بأشباه الرجالة دول؟ فاكره إني منهم؟

شدت على يدي ونظرة لي بنظرة حنانٍ وعطف وقالت: أنا ماقصدش أهينك أبدًا، أنا بس مجرد التفكيرٍ في إنك ممكن يجي يوم تسبني بخاف أوي، إنت بالنسبة لي أرجل راجل في الدنيا كلها ومالي عليا عيني وقلبي يا حبيبي.

بعد سماع هذه الكلمات هدأت أعصابي قليلًا وقلت لها في هدوء: ليه بتتخيلي النهايات الحزينة؟ ليه مش بتتخيلي مثلًا إننا هنتجوز وهنعيش الباقي من عمرنا في حياة وردية كلها حب وسعادة ويبقى عندنا «**ليلى**»صغيرة شبهك؟

ابتسمت وقالت مازحة: إنت نسيت إن أنا عايزه ولاد وبنات كتير مش واحد أو واحده؟

ابتسمت وقلت: نتجوز بس الأول ونشوف الموضوع دا بعدين يا قلبي.

بعد ذلك الحديث وجدنا نفسنا أمام إحدى محلات الأيس كريم، اشتريناه وأكلناه سريعًا ثم قالت لي ضاحكة: عارف أنا نفسي في إيه دلوقتي؟

قلت: لا.

قالت: نفسي من زمان أجري وأرقص في شوارع وسط البلد زي الأطفال.

بدون تفكير ووعي مني حملت حقيبتها الخاصة في يدي ومسكتها من يديها وقلت لها: طب استعدي بقى عشان هنجري ونرقص دلوقتي لحد ما نضحك الناس علينا، ثم أخذتها وركضنا نصف ساعة، نركض ونضحك بصوت عالٍ والناس في الشوارع ينظرون إلينا نظرتهم للمجانيين ولا نلتفت إليهم ولا إلى حديثهم عنا، حتى تعبنا من الجري وتوقفنا نلتقط أنفاسنا قليلًا فرفعت يداها ونظرت إلى السماء، وقالت في تعب: شكرًا يا رب على نعمة وجود «**محمد**» في حياتي، ابتسمت وأنا أنظر إليها وقلت: طول منا معاكي هعمل المستحيل عشان أحقق لك أحلامك، هخليهم كلهم يغيروا منك يا حبيبتي.

نظرت إلى الساعة في يدها وقالت: الوقت اتأخر وفات بسرعة لازم نروح بقى ونفتح الموبايلات.

أخذتها ومشينا نستكمل حديثنا حتى وصلنا إلى المترو ونزلنا في محطتنا وركبنا السيارة الأجرة التي تنقلنا إلى بلدتنا وفي السيارة شعرت أنها تريد النوم ومرهقة.

فسألتها: عايزه تنامي شوية ترتاحي من تعب اليوم والجري دا كله؟

قالت: لا أنا عايزه أفضل قاعده معاك عشان نكمل كلامنا.

ومجرد أن أخرجت محفظتي ودفعت الأجرة للسائق وجدتها أسندت رأسها إلى كتفي وبعد ثوانٍ كانت نائمة على كتفي دون أن تشعر، نظرت إليها ضاحكًا أشفق عليها من التعب الذي كانت لا تريد أن تظهره وقلت في نفسي ضاحكًا: عايزه تكملي كلامنا؟ كمليه في الحلم يا حبيبتي، وأسندت رأسي إلى رأسها ونمت أنا الآخر؛ حتى أيقظنا السائق عند وصولنا، ونظر بعضنا إلى الآخر ودخلنا في نوبة ضحك على الحديث الذي كنا نريد استكماله حتى أن السائق صار يضحك على ضحكنا هو الآخر ونزلنا من السيارة ذاهبين إلى منازلنا التي كانت لا تبعد كثيرًا عن موقف السيارات كانت هي تسبقني وأنا أتبعها مباشرة كعادتنا في بلدتنا كثيرة الحديث والأقاويل حتى وصلنا إلى بيتها ووقفت كعادتها في مدخل منزلها تلوح بيدها بضحكة أطفال أعشقها.

يا إلهي كم كانت ذكريات جميلة حقًا! لا أقدرعلي نسيانها بتفاصيلها البسيطة مهما ذهبت بعيدًا إلى أي مكان ومهما قابلت الكثير والكثير لن أقدر على خيانة ذاكرتي التي تحمل العديد من اللحظات المبهجة.

بعد مدة طويلة من النظر في صورتها على هاتفي الذي امتلأ بدموعي أثناء رجوعي بالذاكرة للذي مضي كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والهواء في شرفتي أصبح شديدًا ومنظر الموج وصوته كان مرعبًا للكثير من الناس، لكني أنا أحب رؤية الموج وهو على هذا الشكل، فوقفت وأنا أستند على سور الشرفة أستمع

إلى فيروز التي أشعر عند سماعها أنني لا أسمع أي شيء آخر سواها وأستمر هذا الوضع إلى الرابعة ونصف تقريبًا لا أفعل أي شيء سوى النظر إلى ظلام البحر وأمواجه وأستمع إلى فيروز حتى اقترب موعد آذان الفجر فتوضئت وانتظرت الأذان ثم بدأت بالصلاة وكنت أدعو الله بقلب يملأه الخشوع أن أراها لو دقيقة واحدة لاطمئن عليها ويطمئن قلبي وكانت الدموع تنزل بغزارة على وجهي من شدة الدعاء والشوق إليها وأنا أرجو من الله رؤياها ثم انتهيت من الصلاة وعاودت إلى سريري لأنام نومًا عميقًا..

الفصل الثاني

هلاوس

«لا تترك نفسك فريسة للمرض ولا تقف مكتوف الأيدي أمام الهلاوس ، فإن وصل بك الأمر أنك لا تستطيع أن تميز الواقع عن الخيال فأنت بحاجة للعلاج».

استقيظت قبل ظهر اليوم التالي وجدت رقم أمي وأبي متكررًا في سجل المكالمات الفائتة يبدو إنهم يريدون الاطمئنان على أحوالي، قمت بالاتصال بهم وتبادلنا الحديث في مكالمة استمرت سبع دقائق اطمئنوا فيها على كل شيء ثم ارتديت ملابسي وخرجت إلى أحد محلات الطعمية وأحضرت الإفطار وعدت للشقة وأعددت مائدتي للطعام وبعد ١٠ دقائق انتهيت من الإفطار، وقمت بعمل المشروب المفضل لي «**الشاي بالنعناع**» وذهبت إلى الرُكن المفضل لي في شرفتي صاحبة الدهانات الزرقاء، ولكن حدث شيء غريب فإذا بي أنظر من الشرفة وقعت عيناي على فتاة بمجرد النظر إليها تشعر أنها ليست من البشر! وفي لحظة من الجنان ودون تفكير وجدتُ نفسي أترك كل شيء

في يدي وأنزل مسرعًا لأتأكد أنها حقيقية ليس من نسج خيالي، وعندما خرجت من باب العمارة وجدتها على الناحية الأخرى من الطريق تنظر لي وتبتسم! فما كان بمقدوري شيء غير أنني وقفت منتبهًا رافع الحاجب الأيسر وفمي مفتوح وظل الحال على هذا لمدة لا تقل عن ٥ دقائق، ثم انتبهت لحالي وقررت أن أذهب للناحية الأخرى من الطريق وهي ناحية البحر وأثناء عبوري للطريق كانت تقف بنفس الابتسامة وزادت الابتسامة عندما رأتني أجري وأسرع لأصل إليها ولكن كانت المفاجأة عندما عبرت للناحية الأخري لم أجد شيئًا! وقفت مصدومًا أحاول استيعاب ما حدث بدايةً من وقوفي في البلكونة مرورًا بابتسامتها وأنا أعبر الطريق إلى هذا الشيء الغريب! وتعددت السيناريوهات داخل عقلي.. ماذا حدث؟ هل كنت أتخيل؟ هل كانت حقيقية وركبت إحدي المواصلات ولم ألمحها وهي تركب؟ أم عادت أسطورة عروس البحر من جديد؟

تخلصت من تساؤلاتي لنفسي وقررت أن أجلس على صخور الكورنيش القريبة من الشاطئ كعادتي، فجلست وبدأت بتشغيل أغاني فيروز لكي أتعايش أكثر مع منظر الأمواج وهواء البحر.. وإذا بي أتذكر ملامح هذه الملاك وأحاول تجميع تفاصيل وجهه وجسده في عقلي لأجد المفاجأة...

إنها ليست جنًا أو شبحًا! إنها إنسانه ولكنها نسخة من «**ليلى**» حبيبتي التي أتحدث عنها! كيف هذا؟ كيف يكون هناك شخصان متشابهان لهذا الحد؟

أوقفت صوت الأغاني وأنا في قمة التركيز والتفكير في سؤال واحد.. هل معقول هذا؟

وأثناء هذا التفكير العميق أجد ذاكرتي تعود بي للخلف منذ أكثر من أربعة أعوام وأنا أجلس مع حبيبتي وأقول لها: تفتكري هلاقي حد شبهك كدا وأعاكسه وأمسك إيده وأعديه الطريق؟

وكان ردها: لأ يا حبيبي، أنا مفيش حد شبهي ولو فكرت تعمل كدا مع حد تاني هقتلك.

كان ردها «**مفيش حد شبهي**» يتردد في عقلي مرارًا وتكرارًا أكثر من أي شيء آخر، فما هذا الذي يحدث معي؟

وأثناء حديثي مع عقلي، وجدت يدًا تضرب كتفي بهدوء فنظرت خلفي فوجدت صديقًا قديمًا لي عرفته من خلال الفيس بوك ينظر لي بابتسامة كبيرة فنظرت إليه بنفس الشعور والابتسامة وقمنا وتبادلنا الأحضان والقبلات، فقال لي معاتبًا: بقى ينفع تيجي إسكندرية كدا ومتقولش لحد وأشوفك صدفه على البحر كمان؟ مش كفايه إننا بقالنا أكتر من سنة مش بنتكلم!

قمت بالرد عليه محرجًا: معلش والله يا خالد الموضوع جه بسرعة مكنتش مجهز له خالص.

رد هو الاخر: على العموم إحنا لسا فيها والنهارده بالليل انت بتاعي وهنخرج وهنتعشى سوا.

وقبل أن أبدأ بالحجج وأقاطعه وأقول: بس أنا...

قاطعني قائلًا: والله لو مخرجناش النهارده واتعشينا سوا هيبقى فيه زعل كبير بينا.

قلت له: خلاص يا عم، لو هتعزمني بقى يبقى فطار وعشا كمان.

ضحك وقال: إنت في إسكندرية يا ابني يعني أهل الكرم إحنا نشيلوك في عنينا عيب عليك.

ضحكت أنا الآخر وقلت له: نشيلوك؟ لا إسكندراني أصلي.

تحركنا من على الصخور بعد أن طلبت منه أن يكمل معي الطريق إلى شقتي ليعرف مكانها وجاء معي وتحدثنا وضحكنا كثيرًا في الطريق، ووصلنا لبوابة المنزل ودعوته لتناول كوب شاي معي في الشقة، لكنه قال: ما احنا كدا كدا هنتقابل بالليل، إطلع انت وريح كدا عشان هقطعك دومينو النهارده مش هخليك تلعبها تاني.

ضحكت وقلت: كل ما أجي هنا تقول كدا وفي الآخر بتخسر وبتدفع حق المشاريب.

وأنهينا الحديث بضحك كثير وذهبت للشقة، وتشتت تفكيري بين الاعتذار لخالد عن عدم تناول العشاء معه لأجلس

وأجد تفسيرًا للشيء الذي حدث في صباح اليوم أو أخرج معه لأنسى ما حدث، وبالفعل عندما جاءت الساعة التاسعة مساءً قمت بتجهيز ملابسي الخاصة لبدء الجولة مع خالد وبعد أن انتهيت، وجدت خالد يتصل بي يبلغني أنه قريب من المنزل وأن أقوم بانتظاره أسفل البيت على الناحية الأخرى من الطريق؛ لنركب السيارة الأجرة ونذهب إلى منطقة المنتزه، فقلت له: أنت قريب مني فعلًا ولا عايزني أنزل وهتسيبني ساعتين في الشارع.

قال بجدية: أنا خلاص قريب منك بص من البلكونة هتلاقيني جاي من بعيد لابس أحمر.

قلت له: ماشي أنا هلبس الجزمة وهبص عليك أهو.. مع السلامة.

وانتهيت من ارتداء الحذاء وفتحت شباكًا صغيرًا بجانب الشرفة لأنظر من خلاله على خالد، وبينما أنا أنظر على الناحية الأخرى من الطريق على خالد إذا بها تقف في نفس المكان برداء مختلف وعلى وجهها الصغير الأشقر الذي يوجد به القليل من النمش حول أنفها ضحكة وابتسامة أعرفها جيدًا كأنني رأيتها مرات عديدة قبل ذلك ليس مرة واحدة فحسب! فدققت النظر إليها ولكن هذه المرة لمدة أطول وهي تنظر إلي وعيناها الملونتان جاءتا في عيني لا أعرف كيف! رغم أنني أنظر من خلف شباك صغير كان مفتوحًا فتحة صغيرة جدًا وكأنها كانت تنتظرني أفتح الشباك لتبتسم لي، ففعلت مثلما فعلت المرة السابقة وأخذت

هاتفي ومحفظتي ومفتاح الشقة ونزلت مسرعًا جدًا على السلالم لدرجة أنني كدت أن أسقط مرتين وكل مرة أستند إلى الحائط، وعندما وصلت لباب المنزل وخرجت منه أنظر إلى ناحية البحر لم أجدها نهائيًا عكس المرة السابقة التي كانت تقف فيها وتضحك لي! قمت بتخطي الطريق ووصلت للناحية الأخري وأنا ألتفت يميني ويساري أبحث عنها وأنادي.. ليلى!، إنتي روحتي فين.

ولحسن حظي لم يكن عدد الناس كبير على البحر، لكن العدد الموجود ظل ينظر إليّ بتعجب كبير! حتى أنني سمعت أحدهم يهمس لصديقه: هو بينادي على مين المجنون دا؟

كانت هذه الكلمة كالصاعقة على قلبي، فاحمرَّ وجهي وشعرت بإحراج كبير جدًا من نظراتهم إليّ وقررت الجلوس بجانب بائع متجول يبيع «**الترمس**» يقف أمام شقتي يوميًا فاشتريت منه، وسألته: بقولك إيه يا حاج من ١٠ دقايق كدا مشوفتش واحدةحلوة كدا كانت لابسه أبيض وواقفه جنبك على مسافة قريبة وبتبص على الشقة اللي فوق دي وبتضحك؟

فنظر إلى وردَّ وملامح القلق على وجهه: بص يا ابني أنا شوفتها بس وأنا بقولها تاكلي ترمس بصت لي كدا ومتكلمتش وضحكت لي ومشيت ومفيش دقيقتين كنت بجهز طلب لشابين ببص عليها ملقتهاش!

نظرت له بدون حديث وسكت هو الآخر نتعجب من الموقف، فقطع صمتنا خالد: إيه اتأخرت عليك؟

قلت له: لا أنا خلاص اتعودت بقي انك ملكش مواعيد.

قال: طب يلا عشان نركب ونمشي بقى.

نظرت للبائع ونظر إلي كأننا أصدقاء وبيننا سر، حتى لاحظ خالد هذه النظرات وتعجب ونظر إلينا نظرة مُريبه..

وسألني: إنت بتبص للراجل دا كدا ليه؟ وهو بيبص ليك كدا ليه؟

وقف الكلام على لساني وتوترت وقلت بابتسامة مصطنعة: راجل مين يابني اللي ببصله ويبص لي دا؟ هو إحنا واخديين بعض عن حب وأنا مش واخد بالي.

ضحك هو الآخر ونسي الموضوع، ووصلنا لأحد مطاعم الدجاج المشوي وطلبت الطعام وطلبت من الكاشير أن يرسل الطعام لنا على القهوة التي توجد في آخر هذا الشارع، وكان خالد يقف خارج المطعم ينظر لي ويبتسم، وخرجنا من المطعم ذاهبيين للقهوة والهواء الجميل يملأ الشارع وبيوت الإسكندرية القديمة كأنها تصدر إلى العابريين في طريقها الراحة النفسية والهدوء، ومنظر البائعيين والزحام ورائحة الأكلات المختلفة وأغاني أم كلثوم وفيروز المنتشرة في الشارع.. تفاصيل تكاد تجعل الماريين ينامون في الشارع ويعيشون فيه من شدة جمال هذه الحالة، وصلنا إلى القهوة وجلسنا وطلبت أنا من أحد العامليين أن يحضر لنا الدومينو، فتعجب العامل وهو يحضرها فمازحته أنا قائلًا: مالك يا عم مش عايز تجبلنا الدومينو ليه؟

رد ضاحكًا: لا يا باشا منقدروش اللي انت عايزه نجيبهولك.

قلت له: قول لحد يجب لي شيشه عشان اللعب يحلو وأهزم الراجل دا بمزاج.

بالفعل طلبها وبعد ما ذهب العامل أشعل خالد سيجارته وبدأنا باللعب والحديث في أشياء كثيرة وضحكنا، وبعد مرور ساعة وصل الأكل وأكلنا وطلبت من العامل أن يحضر لنا كوبين من الشاي، فتعجب العامل مرة أخرى وأنا لا زلت لا أفهم السبب لم أهتم له كثيرًا ظنًا أن ضغط العمل عليه يمكن أن يجعله يتصرف بغرابة، فشربنا الشاي وأكملنا اللعب كأن لم يحدث شيئًا.

انتهينا من اللعب وانتصرت في النهاية كالعادة وبدأت سلسلة الحجج من خالد على أسباب الهزيمة، فقلت له: مش هتبطل بقى يا ابني الحجج دي؟ انت مبتعرفش تلعب أساسًا.

رد ضاحكًا: يا عم والله انت محظوظ أوي أصلًا.

قلت له بسخرية: أيوه كل مرة بكسبك بالحظ مش كدا؟

فضحكنا ونظر خالد لي، وقال: مش هتقولي بردو كنت بتبص للراجل كدا ليه؟

قلت له: منا قولت لك يا ابني! إنت بتنسي بسرعة ولا الهزيمة أثرت عليك بقى.

قال: انت مقولتش حاجة أصلًا أنت توهت ومقولتليش فيه إيه؟

فضحكت ضحكة مصطنعة وقلت: يا ابني ولا حاجه أنت مركز مع الراجل كدا ليه! هو عملك حاجه.

قال بجدية: أصل أنت مشوفتش الراجل كان بيبص لك ازاي! وتركيزه معاك كان ازاي!

ابتسمت بسخرية وقلت: آه يابني ما هو معجب انت مش واخد بالك.

رد بجدية مرة أخرى: يا ابني أنا بكلمك بجد مبهزرش دلوقتي! هو فيه ايه ماله الراجل دا؟

قلت له: يا عم منا كنت ببصله مشوفتش الكلام دا ليه؟

قال: ما هو كان بيبص عليك بعد ما مشيت مش وانت باصصله!!

قلت له: يا سلام!! وانت شوفته ازاي بقى؟

قال: بصراحة كان فيه واحدة حلوة أوي واقفه قدامه وهو بيبص عليك ومش باصص عليها.

قاطعته بلهفة وقلت له: كانت لابسه أبيض وحلوة وعينيها صغيرة وعسلي كدا.

ضحك ونظر بتعجب وقال: الله! مانت مركز أهو وطلعت بتشوف بضهرك يا ابن اللذينَا.

صمتُّ لوهلة وازداد التوتر عليّ وبدأ وجهي في تغيير ملامح الضحك لملامح الهدوء والاستغراب، وبدأ القلق ينتاب وجه

خالد هو الآخر وبدأ يشعر بأن هناك شيء غريب في الموضوع، وقال بضحك: مالك يا ابني في ايه متنح كدا وساكت، إيه اللي حصل؟ البنت عجباك مش كدا؟

قلت له باهتمام: هي البنت دي كانت واقفه مع الراجل دا من أول ما انت جيت وشفت الراجل بيبص لي كدا ولا شوفتها أول ما اتحركنا بس ومشينا؟

قال والتوتر بدأ يظهر عليه من جدية الحديث: لا أنا أول ما جيت وشوفتك كدا مكنش في حد، بس بعد ما اتحركنا بدقيقة ولا اتنين لقيتها واقفة جنب الراجل على اليمين كدا وبتبص علينا لدرجة إني كنت فاكرها بتبص لي وكنت هرجع أكلمها بس لقيتها بتبص عليك ومركزه معاك انت، ومرضتش أقولك لحسن ترجع تكلمها وتأخرنا.

قلت له بجدية أكثر وأكثر: هاه كمل وبعدين حصل إيه تاني ومرضتش تقول عليه يا خالد؟

قال: الغريب إنها كانت واقفه على يمين الراجل والراجل بيبص علينا ومش واخد باله منها رغم إنها حلوة أوي ومش مديها أي اهتمام.

قلت: هاه وبعدين.

قال: الأغرب بقى لما العربية وقفت وانت ركبت الأول وأنا جيت أركب بعدك ببص عليها ملقتهاش ولقيت الراجل بيبص على المكان اللي هي كانت واقفه فيه، مش عارف بيبص على إيه!

قلت له: كمل كمل، هاه ايه كمان؟

قال: لما ركبنا العربية خلاص وقفلنا الباب والسواق لسا بيدوس بنزين وهيطلع ببص من الشباك وانت كنت مركز في موبايلك كدا لقتها بتبص عليك وبتضحك! أنا مش هكدب عليك بس أنا خفت هي ازاي اختفيت ومرة واحدة بقيت قدام الشباك كدا؟

تبادلنا الصمت وكلٌ منا ينظر للآخر نحاول استيعاب الموقف جيدًا لنعرف السر وراء هذه الحسناء، قاطع الصمت خالد قائلًا: هو أنت مخبي عليا حاجه يا محمد ومش عايز تقولها لي؟

أجبته بتوتر: هووووو أناا هخبي عليك إيه يعني؟

قال بهدوء: طريقتك دي في الكلام لوحدها تأكد لي إنك مخبي حاجه وحاجه كبيرة كمان!! يا محمد أنا آه يمكن بشوفك من السنة للسنة، بس إنت بقالك كام مرة مختلف عن قبل كدا فيك حاجة غريبة!. واللي بيحصل دا بيأكد لي أكتر إن فيه حاجة غريبة، لو فيه حاجه مهمة احكي لي واتأكد إن كل اللي هتقوله مش هيطلع بره بس أنا حاسس إنك شايل حكايات كتير ومش عايز تقولها.

ابتسمت قائلًا: يا عم متكبرش الموضوع مفيش حاجه خالص، إنت مالك قلبت عاقل كدا من أمتى؟ انت اتغييرت أوي ياض.

رد بجدية أكثر: أنا بكلمك بجد، انت ليه عايز تهرب من الرد على السؤال؟

فنظرت له وقلت: سؤال إيه طيب؟

قال: مين البنت الغريبة اللي شوفتها دي وحكايتها إيه بالظبط؟

بدأت أسرد له ما حدث اليوم أنني رأيتها في الصباح بعد ما تناولت الفطار، ورأيتها للمرة الثانية وأنا أنظر عليه من الشباك بعد مكالمته الهاتفية، وشرحت له بالتفاصيل كل ما حدث وكيف تعاملت مع الموقف، وقلت له أنها تشبه حبيبتي حتى أنني ظننت أنها هي من شدة الشبه بينهما، وبعد ما انتهيت من حكاية ما حدث لصديقي خالد وبدأت أنتبه لتعبيرات وجهه وجدت أنه كان مبحلق العينين وفي أشد درجات التركيز لا ينظر يمينه أو يساره بل ينظر إليّ فقط ثم بدأ الصمت من جديد لدقائق، وكالعادة خالد يشق الصمت لكن هذه المره كان بسؤالٍ أفزعني وبطريقه كانت مفزعة أكثر من السؤال ذاته!

قال وهو يبتسم ابتسامة هادئة: يعني اللي شوفناها دي ممكن تكون عفريتة؟

فمازحته بضحكة حتى ننهي هذه الجدية في الحديث قائلًا: آه خلي بالك لاخليها تجيلك بالليل بقي.

نظر إلي نظرة ثاقبة وبنفس الابتسامة الغريبة قال: أهلًا بالحبايب يا عم محمد.

مازحته مرة أخرى وقلت: هتعمل فيها مش بيهمك ولما تشوفها هتجري.

ضحك هذه المرة بشدة وقال كلمة واحدة: هجري!

وظل يكرر هذه الكلمة ويضحك لدرجة أنني ضحكت على طريقته.

ثم انتهينا من الضحك وانتقلنا للحديث عن شيء آخر للخروج من هذه الحكاية التي باتت مرعبة أكثر منها رومانسية! فسألته عن عائلته وبالأخص والدته لأنني كنت أعتبرها بمثابة أم أخرى بالنسبة إليّ؛ لأنها كانت تطلب من خالد دائمًا عندما كناً نتحدث عبر الفيس بوك أن يرسل سلامها لي وأنها في انتظاري أتى في أي وقت للإسكندرية لتعد لي بنفسها المكرونة البشاميل التي أحبها منها، ولم أتناولها من يدها منذ أكثر من عامين لأنني كنت مشغولًا بالدراسة ولم أقدرْ على السفر.

قال خالد: ماما كويسه الحمد لله وقالت لي أسلم عليك كتير دي حتى قالت لي خليه يجي يقعد معانا بدل ما يقعد لوحده كدا في الشقة وتلاقيه مش عارف يعمل أكل لنفسه.

وعقب خالد على كلامه وقال: هاه إيه رأيك بقى تيجي تقعد معايا في الأوضه؟ واهو تاكل كل يوم من إيد أمي، أحسن ست بيت في إسكندرية كلها.

ضحكت على حديثه وقلت: سلم لي عليها بس لما تروح قول لها أجلي العزومة الحلوة دي للأجازة التانيه، وقول لها إن أنا بعمل أكل ولا أحسن شييف يعمله.

ضحك هو الآخر وسألني على أحوال أبي وأمي والقط صديقي واطمئن على أحوالهم، ثم انتقلت أنا بالسؤال عن أخيه الأصغر منه الذي كان في آخر عام له في الإعدادية، فاشتكي منه ومن قلة مذاكرته وحبه للسهر والخروج مع اصدقائه فطلبت منه أن يتصل به هاتفيًا لأتحدث معه، لكن خالد سكت لثوانٍ معدودة ثم أخرج هاتفه وقام بفتح المكالمات واتصل به ووضع الهاتف على أذنه وبعد ثواني، قال خالد: دا موبايله مقفول تلاقيه فصل شحن منه ولا تلاقيه مع أصحابه وقافله عشان ما نزعجش سيادته ونقول له يروح البيت يذاكر.

تخطينا موضوع المكالمة والأسرة وتفرغنا للحديث عن كرة القدم خصوصًا أن مبارة الأهلي والزمالك كان قد اقترب ميعادها في ذلك الوقت، وكان خالد مشجعًا للزمالك بينما أنا عاشقٌ للأهلي وطلب خالد مني أن نشاهد المبارة في الأسبوع القادم سويًا في مقهى على البحر، كنا نجلس عليه في العامين السابقين، لكني رفضت بحجة أنني لن أظل كل هذه المدة في الإسكندرية ولابد أن أعود إلى بيتي للاطمئنان على أحوال الاسرة، فبدأ يمازحني قائلًا: ماتتحججش بالبيت والكلام دا، إنت خايف الأهلي يخسر يعني وأحفل عليك وكدا زي ما بتعمل معايا لما الزمالك يخسر؟

قلت له بسخرية وثقة في آنٍ واحد: الأهلي؟ ويخسر من الزمالك!! ليه إيه اللي جرا في الدنيا، ما تنساش نفسك يا ابني وانت بتتكلم على بطل إفريقيا!

ضحك وقال: بطل إفريقيا على أي فريق غير الزمالك.

ضحكت بشدة وقلت: بالعكس هو بطل أفريقيا بالذات على الزمالك.

واستمر النقاش والجدال في الأمور الكروية أكثر من أي موضوع آخر، حتى وصلت الساعة للثانية صباحًا وتفاجئنا من مرور الوقت بهذه السرعة وطلبت من خالد أن يعود لبيته لتأخر الوقت وأمه قد تكون تحتاج له في أي شيء خصوصًا أن أخيه الأصغر لا يعتمد عليه، فطلب مني أن يذهب معي إلى البيت ليطمئن على وصولي وحتى لا يحدث معي شيئًا في هذا الوقت المتأخر لكنني قلت له: يا عم ماتقلقش هو أنا هتخطف؟ ولا هتوه! دانا اسكندراني أكتر من الناس اللي هنا، ضحك وقال: متبقاش تكلمني بس بعد شوية تقول لي أنا اتسرقت تعالى روحني البيت وهات فلوس.

ضحكنا ومشى كلٌ منا في طريقه، لكني كنت أريد أن أتمشى في الشوارع وعلى البحر فالجو كان يغريني بجماله فوضعت سماعة الأذن وبدأت قائمة الأغاني الخاصة بي بأغنية «**أعطني الناي**» للسيدة فيروز وكنت أشعر أنني أذوب بين كلماتها وصوتها في أذني وبين رائحة البحر ولسعة البرد على وجهي، كنت أشعر

أنني في عالم آخر حتى انتهت هذه الأغنية وبدأت «**سهر الليالي**» وعندما بدأت فيروز تقول «**يا يا يا، يا سهر الليالي**» وارتفعت الموسيقى في أذني وجدت نفسي أرقص وحدي على الكورنيش ولا يوجد ناس إطلاقًا لكن كانت هناك سيارات كثيرة تمر على الطريق كنت ألمح ضحكتهم وهم ينظرون لي ولكني كنت لا أهتم لسخريتهم بل كنت أنتبه للموسيقى والرقص، لكن في وسط كل هذا رأيتها من جديد! نعم رأيتها بنفس الابتسامة بنفس تعبيرات وجهها وهي تنظر لي! لكن هذه المره كانت داخل سيارة أجره على الناحية الأخرى من الطريق وكانت تجلس بجوار النافذة لكنها فعلت شيئًا جديدًا هذه المرة.. أشارت بيدها يمينًا ويسارًا كأنها تقول «**باي**» من خلف زجاج السيارة وأنا أقف بنفس الطريقة مثل المرات السابقة وكالعادة عندما أتخذ خطوة وأتحرك تذهب بعيدًا، تحركت السيارة التي كانت بداخلها وأنا ما زالت عيناي تنظر على السيارة من الخلف كأنني أودعها، وعندما التفت خلفي مباشرةً إذ فجأةً أجد خالد يقف مبتسمًا.

فتعجبت وسألته: مش اتفقنا إنك هتروح بيتكوا يا عم المجنون!

فضحك وقال: دي آخرتها يعني إنك مهونتش عليا أسيبك لوحدك لحسن تتخطف ولا حد يثبتك!

ضحكت أنا الآخر وقلت له: عرفت منين إن أنا هنا يا عم انت مخاوي ولا مراقبني ولا حكايتك إيه؟

ضحك أكثر وقال: مخاوي؟ لا بلاش خليها مراقباك أحسن.

وبينما أنا الحديث على طرف لساني أستعد لأقول له أنني رأيتها من جديد، قاطعني وقال: شوفتها تاني؟ كانت في المشروع اللي كنت إنت متنح فيه دا مش كدا؟

تعجبت من حديثه وسألته: إيه دا! انت هنا من بدري ولا إيه؟ إنت شوفتها انت كمان!

قال خالد: أنا هنا من ساعة ما عملت لك باي.

قلت له بلهفة: يعني أنا مش بتخيل! وفي واحدة بشوفها فعلًا أهو!

رد: مين قال إنك بتتخيل؟ ما انا شوفتها زيك يا محمد.

قلت له: أنا لازم أمشي بكرا من هنا، وأستشير دكتور طاهر وأحكي له كل دا.

سألني قائلًا: مين دكتور طاهر دا؟

جاوبته: دكتور أمراض نفسية وعصبية، ممتاز وبرتاح معاه في الكلام.

نظر إليّ وصمت لثوانٍ ثم قال: طب ما تكلمه في الموبايل وخليك هنا كام يوم كمان!

فكرت لدقيقة وقلت له: معلش يا خالد الكلام فيس تو فيس أحسن عشان في تفاصيل وكلام مابنعرفش نوصلها في الموبايل.

قال: كدا يعني تيجي وتمشي بالسرعة دي ومنلحقش نقعد خالص غير الكام ساعة دول.

ابتسمت له وقلت: الأيام جايه كتير، وبعدين ما انت بقالك كتير أوي مكلمتنيش على الفيس!

ابتسم هو الأخر وقال: ما انت لو بتسأل كنت عرفت ماكلمتكش ليه كل دا!

ضحكت وقلت له: مانت عارف بقى الوزارة والبيت والأولاد شاغلني يا خالد، يلا قولي في إيه متكلمتش ليه الفترة دي كلها!

ابتسم وقال: بعدين هتعرف بردو مكلمتكش ليه.

قالت له: ماشي يا عم الحويط، تعالى بقى وصلني الخطوتين دول وتيجي الصبح توصلني المحطة وتودعني والحاجات الحلوة دي.

ضحك وقال: تمام يا افندم.

تحركنا وفي طريقنا للبيت تحدثنا في أمور حجز التذكرة للقطار المكيف والفروق بين درجات القطار حتى وصلنا أمام المنزل وصعدت إلى الشقة وركب خالد السيارة الأجرة وذهب لبيته هو الآخر، وبدأت أجمع ملابسي وأغراضي الخاصة من الشقة وأضعها في حقيبة السفر، وانتهيت من تجميع الأشياء ودخلت إلى الحمام لأغسل يدي وخرجت منه وأكلت شيئًا خفيفًا وذهبت في نوم عميق كأنني لم أنم منذ عام، ولكن هذه المرة رأيت

حبيبتي بنفس الرداء الأزرق بإبتسامتها التي تقتلني شوقًا وحنينًا لسنواتنا معًا كانت تقف بعيدًا عني وأنا أنظر إليها بلهفة لكن كل ما تحركت نحوها تظل المسافة بيننا ثابتة لا تقل ولا تزيد، وبعد ثوانٍ تحول وجهها المبتسم لوجهٍ حزين وصرفت نظرها عني ونظرت إلى قدميها وهي ما زلت حزينة! فتعجبت من تعبيراتها، وسألتها: زعلانه ليه دلوقتي؟

لم تنظر إليّ ولم ترد حتى بحرفٍ واحدٍ كأنني أتحدث إلى نفسي، فكررت النداء عليها ولكن بصوتٍ هادئ: ليلى.. ليلى إنتي سمعاني؟ طب لو سمعاني ردي عليا قولي لي أي حاجة!

اكتفت هذه المرة بالنظر إليّ فقط!، ولكن عندما كنت أقترب منها كانت المسافة هذه المرة تقل وأقتربت حتى أصبحت على بعد خطوات قليلةٍ منها وكررت النداء: ليلى! ردي عليّ.

ردت وقالت: نعم؟ عايز إيه!

قلت لها بسرعة وبدون تردد أو تحضير للكلام: وحشتيني أوي.. بقى معقول ما نشوفش بعض كل دا ولا حتى صدفة!

ردت: وتشوفني ليه بقى مانت مع أول بنت حلوة شوفتها بقيت تفكر فيها ونستني خالص أهو.

توترت وقلت لها: بنت! بنت مين؟

أجابتني: البنت اللي ظهرت لك انهارده ٣ مرات وانت مش عارف هي مين وشكلها عجباك أوي.

ضحكت وقلت لها: إيه دا عرفتي منين؟ وبعدين انتي مش سيبتيني غيرانة ليه بقى؟ وعلى فكرة هي عجبتني عشان شبهك أوي بس.

ضحكت وقالت: شكلك نسيت كلمتي أنا مفيش حد شبهي!، ثم أدارت ظهرها لترحل؛ ولكن ناديت عليها وقلت لها: ليلى! انتي رايحة فين احنا مكملناش كلامنا لسا! انتي مستعجلة دايمًا كدا؟

التفتت برقبتها وقالت: ماحنا هنرجع تاني وهنتقابل كتير.

قلت والابتسامة العريضة على وجهي: بجد! إمتى؟

ابتسمت الابتسامة القديمة وقالت: قريب.. قريب أوي.

وشاورت لي واختفيت من أمامي وأنا ما زلت أنظر إلى المكان التي كانت تقف فيه.

تحول المشهد تمامًا ورأيت نفسي واقفًا على متن مركب في وسط البحر وهناك غريق، جثته تطفو على سطح البحر وحوله مركبين إنقاذ قام بانتشال جثته وفجأه اقترب المركب الذي أنا فيه من مراكب الإنفاذ وكانت جثة الغريق مغطاة بقطعة قماش، لكن الهواء وكأنه يقصد أن يعرفني على هوية الغريق وطار من على وجهه وإذا بي أجده خالد صديقي!! وباتت ملامح الصدمة على وجهي واضحة لكل المتواجدين وهو الأمر الذي دعاهم يسألونني عنه، فسأل أحدهم: حضرتك تعرف المتوفي يا أستاذ؟

تلجلجت في الإجابة وقلت: آه دا صاحبي.

وبدأت الدموع تنهال من عيني وازدادت سرعة ضربات قلبي ولساني عجز عن الرد من شدة الصدمة، حتى أحضروا لي زجاجة مياه وطلبوا مني الشرب والهدوء؛ ليتمكنوا من معرفة أهل خالد وعنوانه؛ ليتواصلوا معهم ويسلموهم الجثة ليدفنوها بمعرفتهم.

هدأت أعصابي قليلًا وكنا قد وصلنا للشاطئ وكان معي رجُليين من رجال الإنقاذ ومع أحدهم ورقة وقلم يسجل ما أقوله وأعرفه عن خالد، وأثناء الإدلاء بالمعلومات التي أعرفها عنه وقعت عيني على وجهه الذي ظهر للمرة الثانية أمامي فوجدته ينظر لي ويبتسم، فزعني الموقف وانتفضت من مكاني وأنا أدعك عيني جيدًا وأنظر إليه مرة والثانية والثالثة ولا أجد ما رأيته من دقائق وأجد وجهه مغطى بالقماشة البيضاء كما هو!! حاول الرجلان أن يهدأوا أعصابي ويقنعوني بأن ما شاهدته هو خيال ليس حقيقي وأنه من أثر الصدمة على فراق صديقي وأحضروا لي هذه المرة كوب ليمون كبير من مقهي على الشاطئ، شربت الليمون وهدأت نوعًا ما واستمر الرجال في تفسير الأمر الذي شاهدته.. لكن عندما نظرت للرجل الذي كان يكتب ما أقوله لأول مرة وجدت شيئًا غريبًا! إنه ليس رجل إنقاذ بل إنه بائع الترمس!! نعم بائع الترمس الذي رأى الفتاة الحسناء، لكن ما الذي أتى به هنا؟ وما علاقته بالإنقاذ؟ وهو في الأساس بائع متجول عمره يتخطى الستين عامًا!!

سمعت منبه هاتفي، دقت الساعة التاسعة صباحًا، بعد ليلة طويلة وحلمين أغرب من بعض تملأهم الألغاز، فقررت أن أكتبهم في الكشكول الذي أتركه جنبي دومًا قبل النوم لأسجل فيه أحلامي قبل أن أنساها، وبعد أن انتهيت من كتابة الحلم دخلت إلى المطبخ لتحضير إفطار سريع، حضرته ووضعته على سفرة الصاله وقمت بإحضار ريموت التليفزيون وغيرت في قنوات عديدة للأفلام حتى وصلت لقنوات الأفلام الكلاسيكية القديمة وكانت أحدهم تعرض حفلة لكوكب الشرق وكانت الأغنية «**أغدًا ألقاك**» فقلت في نفسي: يا سلام جيتي في وقتك.

وقمت برفع مستوى الصوت وتركتها وبدأت في تناول الإفطار، وبعد ما انتهيت وأعددت كوب الشاي بالنعناع، أمسكت الكشكول الذي أدون به أحلامي لأراجع التفاصيل التي قمت بكتابتها عندما استيقظت، وجاء تركيزي الأكثر مع البائع صاحب عربة الترمس فقرأت الجزء الذي يخصه في الحلم مرات عديدة، فجاء في عقلي فكرة التأكد من وجوده في الأساس. فقررت أن أفتح الشباك الصغير لأنظر منه وأتأكد، فوجدت العربة في مكانها وهناك رجل يقف ولكن ظهره فقط هو الواضح لي لا أستطيع رؤية وجهه لأتأكد أنه هو! لكن الشخص الواقف أمام العربة هو نفس طول الرجل الذي رأها والذي رأيته أنا في الحلم!، ماذا أفعل الآن؟ هل أنزل لأتأكد بنفسي؟ أم أنتظر قدوم خالد ليتأكد معي؟ لم يمر على الكثير من الوقت للتفكير في الأمر لأنني بالفعل

أخذت القرار وقررت أن أغادر الشقة ومعي أغراضي، وبالفعل غادرت الشقة وقمت بإحكام غلق الباب بالمفتاح وخرجت من المنزل دون أنا أتحدث إلى خالد حتى، وعندما ألقيت نظري على مكان العربة وجدت المكان فارغًا!! لا عربة ولا بائع ولا أي شيء على الإطلاق!، ذهبت إلى المكان الذي رأيته فيه وسألت أحد المتواجديين في المكان: لو سمحت ما شوفتش راجل معاه عربية ترمس كان واقف في المكان دا من حوالي ١٠ دقايق كدا؟!

رد: أيوه هو كان واقف هنا بس لم حاجته ومشى من هنا كدا.

شكرت الشاب الذي دلني على الطريق الذي مشى منه وتركت حقيبتي معه وطلبت منه أن يحتفظ بها ١٠ دقائق فقط.. وافق الشاب، وبدأت أنا أركض في الطريق الذي أشار عليه الشاب بسرعة كبيرة حتى لمحت العربة والرجل على بعد أمتار قليلة فلحقت به لأنه كان يمشي ببطء، ووضعت يدي على كتفه ليلتفت بوجهه وأجد أنه ليس الرجل الذي رأيته من قبل!! فظننت أنه بائع أخر غير الذي كان يقف أمام الشقة، ولكي لأتأكد من ذلك قررت استدراجه في الأسئلة، فقلت له: إسم الكريم إيه؟

رد: سيد فهمي عبدالعاطي، تؤمرني بحاجة يا أستاذ؟

قلت له بابتسامة وصوت هادئ: هو أنت كنت واقف فين من تلت ساعة كدا؟

رد: كنت واقف ورا شوية عند المرسى بتاع المراكب «**أمام الشقة**»، في حاجه يا أستاذ؟

جاوبته بابتسامة حتى لا يقلق: لا يا ريس ولا حاجه، أصل أنا متعود آخد ترمس من العربية دي على طول حتى لسا واخد امبارح وأول امبارح من الحاج والدك.

ضحك ضحكة بسيطة ممزوجة بسخرية: والدي؟ تعيش إنت يا بيه بقاله سنة.

ظهر تعبير الصدمة على وجهي وسألته مرة أخرى: هو والدك كان عنده دقن بيضا وبيلبس شال أبيض زي اللي انت لابسه دا وكان أسمراني أهو وبيلبس خاتم جواه فص إسود كدا؟

تعجب الشاب الذي كان يبدو أنه في منتصف الثلاثينات من عمره وقال: الله! دا انت كنت تعرف الحاج كويس بقى، أيوه أبويا كان بيلبس زي ما بتقول كدا بالظبط.

ومدَّ يده في جيبه وأخرج محفظته وأخرج صورة منها وأعطها لي، وقال: خد يا أستاذ دي صورة لأبويا ألف رحمة ونور تنزل عليه.

مسكت الصورة ويدي ترتجف بها وأنا أبحلق في وجه الرجل؛ لأنني وجدته يبتسم!! انتفضت ووقعت الصورة من يدي، وهو الأمر الذي جعل «**سيد**» البائع يقول بغضب: في إيه يا أستاذ؟ هو أنا بطلع لك صورة أبويا ومعطل نفسي معاك عشان ترمي الصورة في الأرض كدا؟

اعتذرت له بشدة: أنا آسف يا سيد والله وقعت غصب عني، معلش.

ابتسم بطيبة قلب وقال: حصل خير يا أستاذ، عايز حاجة تاني؟

قلت له: معلش هتقل عليك في سؤال أخير هو ممكن يضايقك بس سامحني أنا بجد محتاج أعرف إجابته ضروري.. هو الحاج «**فهمي**» والدك مات إزاي؟

قال وهناك مسحة حزنٍ في صوته: بص يا أستاذ أنا أبويا قبل ما يجيب العربية دي كان مع فرق الإنقاذ اللي بتلحق الغرقانيين قبل ما يموتوا، أو بيطلع اللي ماتوا وجسمهم اتنفخ وبيبقوا عايمين على وش البحر كدا واشتغل الشغلانه المنيلة دي من وهو عنده عشرين سنة لحد أواخر الأربعينات كدا، ولما تعب وحس إنه مش هيقدر يساعد الناس مشي من الشغلانه دي وكان معاه قرشين شايلهم للزمن فقال يجيب العربية اللي قدامك دي واهي شغلانه تعيشني أنا وهو وامي، ومن ساعة ما جاب العربية دي وهو حاططها وبيبيع في المكان اللي قلت لك عليه من شويه واللي انت شكلك جاي من عنده كدا، المهم من سنة ونص كدا كنت أنا شغال في محل سمك وقتها وبروح الساعة ٩ بالليل وأبويا بيروح الساعة ١٠، أنا روحت واتعشيت وقعدت وحكيت مع أمي والساعة بقيت ١١ وأبويا مجاش فأمي قلقت وقالت لي أروح اتطمن كدا اشوفه فين لاحسن يكون تعب ولا فيه حاجه، روحت انا على مكان

العربية لقيت أبويا حاطط الفرش على العربية ومقفل الدنيا وراكن العربية وملقتوش ولا لقيت حد خالص، روحت البيت قلت لأمي كدا قلقت أوي وانا طمنتها وقلت لها زمانه جاي تلاقيه بيجيب حاجه ولا قاعد مع عم فاروق صاحبه على القهوة، اتطمنت شوية وراحت في النوم وانا نمت بعدها بنص ساعة لما اتأكدت انها نامت بس بردو نايم قلقان أصلها مش عوايد أبويا انه يتأخر يوم االأحد كدا ولا يخرج مع اصحابه، أنا بس عشان مقلقش أمي، صحيت تاني يوم الصبح على صوت أمي كانت الساعه ٨ كدا بتقولي قوم دور واسأل على ابوك، دا عمره ما عملها وبات بره وهو شاب هيعملها بعد ما كبر كدا؟ انزل يبني الله يبارك لك شوفه فين.. قمت انا غسلت وشي ولبست وخرجت من البيت على أمل إني ألاقي أبويا عند العربية ومفيش حاجه، لكن رحت ولقيت كل حاجه زي ما هي فسألت البياعيين اللي هناك اللي عارفينه وكلهم ميعرفوش راح فين، زاد القلق عليه يا أستاذ أكتر وأكتر ومسكت الصورة اللي لسا موريهالك دي وبقيت اسأل الناس اللي راحه واللي جايه عنه وفضلت أعمل كدا ٣ أيام ورا بعض، وأمي صحتها في النازل ودمعتها مانشفتش على خدها ولا انا ولا هي بناكل حاجه عايشين على شوية المياه يا استاذ والله، واليوم الرابع قلت اشوف أكل عيشي وارجع المحل تاني منا مفيش في إيدي حاجه اعملها وماعملتهاش، رجعت يا أستاذ المحل وانا مليش نفس لحاجه خالص والساعه ١ الضهر كدا جالي واحد صياد على

المحل قالي انا روحت لك على البيت ملقتكش والحاجه قالت لي انك هنا، قلت له هاه فيه أخبار جديدة.. قال لي إنت مؤمن بالله ولا لا يا سيد؟ أنا فهمت من طريقة كلامه الخبر اللي كان عايز يقوله، قلت له لا إله إلا الله.. قالي شد حيلك الحاج فهمي لقينا جثته واحنا بنصطاد من ساعة وشكله غرقان من كام يوم ولقينا معاه جثه لشاب صغير على مسافة قريبه منه، شكله يا ابني حتى وهو في آخر أيام حياته كان عايز يرجع لعمله الطيب بتاع زمان وكان بيحاول يطلع الشاب دا فغرق معاه، زادت دموعي وانهارت واغم عليا وسط المحل والناس فوقتني وقالوا لي يلا عشان تجيب جثة أبوك ونصلي عليه ونلحق ندفنه أنت راجل كبير مش عيل صغير، وسمعت لكلام الناس الكبيرة وروحت وديت أبويا على المستشفى عشان أطلع تصريح الدفن واخلص الإجراءات وخلصتها فعلًا، بس واحنا بنشيل جثة أبويا وبنحطها في عربية الاسعاف وحطينا الجثه التانيه جنبها وكانوا الاتنين متغطيين، ودخلوا المستشفى مع بعض والحكاية دي انتشرت أوي في المنطقة كلها واتعرفت أوي.

قاطعته وقلت: ليه هما أول مرة يلاقوا اتنين غرقانيين يعني؟!

أكمل حديثه قائلًا: يا أستاذ ما انا جايلك في الكلام أهو انت مستعجل ليه؟ احنا بعد ما خلصنا الإجراءات ودفنا أبويا الله يرحمه سمعنا إن المستشفى بتقول الجثة بتاعت الشاب اختفيت وهو دا اللي شهر الحكاية دي أوي كدا لأن بعد دخول الجثتين بكام

ساعة وعلى ما اتعرّفوا على الغريق التاني اللي مع ابويا واتصلوا على أهله يجوا يستلموا ملقوش الجثة! الجثة اختفيت ومحدش عارف راحت فين، والكلام انتشر في اسكندرية كلها وكترت الحودايت وكلام الناس اللي مابيخلصش واللي يقول دا الممرضيين باعوا الجثة لطلاب طب عشان يذاكروا عليها، واللي يقول دا الدكاتره كانوا طمعانيين ياخدوا قرنية العين لأنها الحاجة الوحيدة اللي كانت سليمه في جسمه، واللي يقولك دا الجثة اتحركت لوحدها وهربت ومكنتش مرتاحه، وحواديت كتير أوي يا أستاذ محدش عارف الحقيقة فين لدلوقتي بس في ناس قريبه أوي منه كانوا معاه في الكلية بيقولوا إنه بيجلهم يبصلهم ويضحك ويمشي من غير ما يكلمهم، وامه واخوه بيقولوا إنهم ساعات بيشوفوه من ضهره واقف في البلكونه ولما يفتحوها ميلقوش حاجه! بس كدا يا أستاذ هي دي حكاية أبويا اللي انتشرت واتشهرت بين الناس.

قلت له: مش ناسي حاجه تاني، مش حاسس إنك عايز تقول حاجه؟

فكر قليلًا ثم قال: اااه قبل ما اشيل جثة أبويا وانقلها للإسعاف خلعت الخاتم اللي انت شوفته معاه من إيده وحطيته في جيبي، ومد يده إلى جيبه وأخرج الخاتم وقام بمسحه في الجلباب الذي كان يرتديه، ثم قال وهو يمد يده بالخاتم: اتفضل يا استاذ شوف كدا هو دا ولا؟

مددت يدي إليه وأخذته وتفحصته جيدًا وقلت له: آه آه هو.

ثم رددت الخاتم إليه وشكرته على الوقت الطويل الذي أخذته منه في حكاية موت أبيه، وكان على قدر كبير من الاحترام ولم يطلب مني شيئًا وأخذ العربه وغادر المكان.

بعدما غادر المكان نظرت في الساعة وجدت أنني وقفت مع الرجل ما يقرب من ٤٠ دقيقة، فتذكرت حقيبتي التي تركتها مع الشاب عند الشقة فعاودت بسرعة لأجد خالد يقف بجانب الحقيبة ويقول: بقى كل دا بترغي مع بتاع الترمس وسايب شنطتك! الشاب زهق وسابها ومشي.

ضحكت وقلت له: كويس إنك جيت ولحقتها قبل ما تتسرق، مكنتش دخلت البيت من غيرها.

ضحك هو الآخر وقال: طب يلا ناقص أقل من نص ساعة على ميعاد القطار.

أوقفنا تاكسي ووضعنا الحقيبة في شنطة التاكسي وانطلقنا إلى محطة قطار «**سيدي جابر**» ووصلنا المحطة وتركت خالد بجوار الشنطة ومعه هاتفي وأشيائي الخاصة وذهبت لأحجز تذكرة للقطار، وحجزت وجلسنا على مقاعد الانتظار حوالي ١٠ دقائق وعندما لمحنا القطار على مقربه من الرصيف ولن ينتظر كثيرًا قمنا بتبادل الأحضان والقبلات، وأكد عليّ وقال: المرة الجايه لو ماتصلتش بيا وانت جاي هزعل أوي ومش هكلمك تاني والله.

ابتسمت له وقلت: لا خلاص والله ماتقلقش أنا هاجي قريب تاني وهكلمك أكيد مش هسيبها للصدفة زي المرة دي.

قال: طب يلا ناخد صورة سيلفي للذكرى، وأخذ هاتفي واخذنا الصورة وأعطاني الهاتف مرة أخرى وتصافحنا وأعطاني ظهره وغادر المكان، وصعدت أنا للعربة التي بها المقعد الذي قمت بحجزه ووضعت حقيبتي فوق المقعد في المكان المخصص للحقائب، وتحرك القطار بعدها مباشرة.. فوجدت رقم والدتي على الهاتف في المكالمات التي لم يرد عليها فاتصلت بها وطمئنتها على أحوالي وأن القطار لم يفتني ولحقته وانهينا المكالمة، فتذكرت أن أتحدث إلى دكتور «**طاهر**» لأحجز ميعاد للكشف في عيادته الخاصه وبالفعل أجريت المكالمه معه، قلت: ألو، حضرتك عامل إيه يا دكتور طاهر.

رد: الحمد لله يا محمد فينك مختفي بقالك كام يوم.

قلت: أهو يا دكتور بقى كنت في اسكندرية بفك عن نفسي شوية.

رد: ماشي يا عم ربنا يسهلك أحوالك، مش هتيجي العيادة نشوف وصلت لإيه بقى؟

ضحكت وقلت: سبحان الله أنا متصل آخد ميعاد من حضرتك أصلًا.

ضحك هو الآخر وقال: شوف الوقت اللي يناسبك وكلمني وأنا هظبط الميعاد مع عم «**عزيز**».

قلت: خلاص يا دكتور شوف لو بكرا الساعة ٧ يناسب حضرتك.

رد: خلاص تمام هستناك متتأخرش.

قلت: شكرًا أوي يا دكتور، مع السلامة.

وانتهت المكالمة ومسكت بهاتفي وبدأت تشغيل قائمة الأغاني المفضلة لي وبدأت أغلق عيني أستعد للنوم، وبينما أنا أبدأ في النوم وقبل أن أغلق عيني تمامًا رأيتها تمر بجانب مقعدي!! انتفضت من مكاني وانتابني الفزع وكانت قد وصلت للعربة الثانية فمشيت خلفها ثم ناديت بهدوء وترقب: لو سمحت يا أستاذة!

التفتت إلي برقبتها وهي تقف مكانها لكن هذه المرة كانت بنت أخرى ليست شبيهة حبيبتي!! وقالت بتعجب: نعم.. حضرتك عايز حاجة؟

اعتذرت لها في هدوء وانسحبت وعاودت أدراجي إلى مقعدي والنوم يملأ عيني، ثم وضعت سماعتي الخاصة في أذني وأكملت قائمة الأغاني، وبالفعل نمت نومًا عميقًا.

استفقت من النوم على صوت الكومسري وهو يقول: يلا يا أستاذ المحطة بتاعتك داخليين عليها أهو، يلا قوم وجهز حاجتك عشان القطار مبيقفش كتير.

وجهت الشكر للكومسري وأنزلت حقيبتي وجمعت أغراضي الصغيرة ووقفت عند باب القطار استعدادًا للنزول، ولم يمر سوى دقيقة أو دقيقتين ووقف القطار وخرجت منه وغادرت المحطة وأوقفت سيارة خاصة لتنقلني إلى بيتي.

وصلت إلى المنزل وصعدت إلى شقتنا وكان أمي وأبي ينتظراني في صالة الشقة، فتحت الباب وألقيت التحية عليهما بابتسامة كبيرة ثم احتضنتني أمي وقبلتني ومن بعدها أبي ثم جاء القط من غرفتي ركضًا خلفي فرفعته عن الأرض وألقيت عليه التحية هو الآخر، ثم قالت أمي: طبعًا أنت جعان من السفر، أنا عملالك البشاميل اللي بتحبها.

ابتسمت لها وقلت: آه بصراحة أنا مش قادر هفضي الشنطة وأغير هدومي على ما تخلصي.

وبعد مرور ربع ساعة كنت قد أفرغت حقيبتي، وغيرت ملابسي، وغسلت يدي، وأستعددت للغداء.. وبالفعل نادت عليّ أمي لتخبرني أن الطعام جاهز الآن، خرجت وتناولت الغداء وانتهينا منه وأحضرت أمي لنا الشاي بعد الغداء، وشربناه وتحدثنا عن أمور كثيرة حدثت في خلال أيام سفري للإسكندرية، وقال أبي: القط صحبك تعب يا عم وانت هناك ومش حاسس بيه.

قلت والدهشة على وجهي: إيه دا بجد امتى؟ وعملتوا إيه؟

ابتسم أبي وقال: ما تقلقش أوي كدا ما هو مش صحبك لوحدك منا اللي بحط له الأكل وصحبي بردو، أنا اتصرفت ووديته للعيادة البيطرية وهما اتصرفوا معاه وعملوا الواجب وبقى زي الفل أهو.

أخذت نفسًا عميقًا وأخرجته وأنا أقول: الحمد لله خضتني والله يا بابا.

ابتسم أبي وقال: عارف انت لولا إن القط بتاعك دا وفي أنا كنت خليته يمشي وانت مش مسافر، بس القط دا غريب طول مانت مش موجود مكنش بيقوم من على السرير بتاعك غير للأكل والشرب والحمام بس، لكن غير كدا يفضل قاعد جوا.

ضحكت وقلت: أيوه ما هو وفي زي صاحبه طبعًا.

قال مازحًا: لا وانت وفي أوي يلا.

ثم دخل أبي ليرتاح قليلًا على سريره، وفتحت أمي التليفزيون على القنوات الكلاسيكية التي تعشقها والتي صدرت حبها لي وقمت أنا لأدخل غرفتي التي أفتقدها وأفتقد جوها كثيرًا، وعندما دخلت وجدت نفسي أشعر بالخوف لأول مرة ولا أعلم لماذا!، لكن لم أهتم لهذا الخوف بحجة أن هذا الخوف يبدو أنه من قصة وفاة «**فهمي**» صاحب عربة الترمس والشاب الذي كان معه.

قمت بتشغيل أم كلثوم على هاتفي ووضعته بجانبي، وأسندت رأسي إلى وسادتي التي كنت أفتقدها أيام سفري وأخذني النوم سريعًا في أحلام كثيرة لا أتذكر شيئًا منها.

استيقظت في مساء نفس اليوم على صوت أمي، وهي تقول: يلا يا محمد عشان تاكل.

نهضت من سريري وخرجت لتناول العشاء وسط ابتسامات وضحك أبي وأمي مع بعضهم وكان صديقي القط يجلس معهم وكأنه من أفراد أسرتي يستمع للحديث بانتباه لكن ينقصه لسان بشري ليتحدث معنا ويحاورنا.

انتهينا وأحضرت أمي الشاي وتفرغنا للحديث عما حدث معي خلال الأيام التي قضيتها في الإسكندرية، وجاءت أسئلة أبي وأمي عن ماذا فعلت هناك وهل كنت سعيدًا في هذه الأيام أم لا.

فقال أبي: طبعًا عملت كل اللي نفسك فيه وقضيت لك يومين حلويين.

ضحكت له وقلت: آه طبعًا طبعًا.

وأنا في داخلي أسخر من حديثه؛ لأنه لا يعلم الأشياء الغريبة الذي حدثت معي هناك.

علقت أمي على حديثنا وقالت: لا دا بيضحك علينا، حتى كان رايح لوحده من غير أصحابه وتلاقيه رجع بسرعة عشان زهق وملقاش حاجه يعملها.

رد عليها أبي مازحًا وقال: هو دا بيغلب؟ تلاقيه اتلم على ناس من هناك وكان بيخرج معاهم بس يا رب يكونوا رجاله بس مش بنات.

فضحكت على حديثهما وقلت: الله! دانتوا بتحفّلوا عليا بقى؟ شكلي كدا هاخد صحبي (القط) ونروح أوضتنا بكرامتنا.

ضحك أبي وقال: ما هو انت ما قلتش قضيت اليومين دول مع مين!

قلت له: مع خالد صحبي يا بابا هو أنا بخرج مع حد غيره هناك!

تدخلت أمي وقالت: خالد محمود اللي بتكلمه كل ما تروح إسكندرية؟

ابتسمت وقلت لها: ايواااه هو دا.

فطلب مني أبي أن يرى صورة لخالد ليتعرف على شكله، فأخرجت هاتفي من جيبي وكانت صورتي أنا وخالد التي مر عليها عامين أو أكثر خلفية للهاتف وعرضتها هي وصورًا أخرى عليه فابتسم أبي وهو يشاهد الصور مما جعلني أشعر باستحسان أبي له، وبعد ثواني أكد أبي ذلك الشعور عندما قال: شكله جدع وابن ناس.

وعقب على كلامه مازحًا وقال: ويترى الجدع دا عزمك على حاجه هناك بقى ولا لا؟

فضحكت وقلت: آه دول أهل كرم، عزمني على فرا....

وقبل أن أكمل الكلمة وجدت المشهد يُعاد في ذاكرتي.. كيف كان خالد لديه إصرار ورغبة كبيرة في أن يدفع ثمن الوجبة وعند الوصول للمطعم لم يدخل معي وطلب أن ينتظرني بالخارج؟ فلاحظ أبي أنني توقفت في الحديث فجأة، فداعبني وقال: الفراخ كانت فاسدة ومش عايز تحرج صاحبك قدامنا ولا ايه؟

ضحكت ضحكة مصطنعة وقلت: عرفت منين يا حاج؟ انت مخابرات ولا إيه!

مع كل هذا الحديث أمي لم تعلق على شيء واكتفت بالصمت ومتابعة الحديث في هدوء، مما جعلني أشعر أنها تجمع تفاصيل الحوار لتصل لشيء ما، ولاحظت زيادة تركيزها عندما توقفت في كلمة «**فراخ**» وتذكُري موقف خالد، فمازحتها وقلت: مالك يا حاجه ساكته ليه؟ بتخططي لإيه كدا.

ابتسمت وقالت: بسمعكوا يا ابني بفرح لما بشوف ضحكتكوا سوا.

نظرة لها بابتسامه وقلت: ربنا يخليكي لينا وتعيشي وتشوفي ضحكتنا.

وانتهى حديثنا ودخل أبي وأمي لغرفتهما ودخلت إلى غرفتي لكن أمر خالد أصبح موضع تفكيري حتى أنني انغمست في التفكير في موقفه هذا لوقت ليس بقليل، وفي النهاية لم أصل لنتيجة غريبة بل كل ما وصلت إليه قد تكون استنتاجات طبيعية! قد تكون سقطت محفظته أو وضع ثمن الوجبة في شيء أكثر أهمية بالنسبة له ورفض أن يفصح لي بشيء حتى لا يشعر بالإحراج، وهو الأمر الذي كان يجعله محرجًا من دخول المطعم وانتظر بالخارج بحجة أن لديه مكالمة هاتفية.

ارتاح عقلي للنتيجة التي وصل إليها وذهبت لنوم عميق بعد التفكير في أمر خالد، واستيقظت في عصر اليوم الثاني ونظرت لساعة هاتفي وجدتها الثالثة عصرًا فتعجبت! كيف تركتني أمي كل هذه المدة نائمًا ولم تُوقظني للإفطار حتى! قلقت واعتقدت

أن أبي قد يكون عاد له المرض ويريد هو وأمي أن يخفوا الأمر عني فتحركت من سريري مسرعًا وعيناي ما زالتا لا أرى بهما جيدًا من آثر النوم فوجدت باب الغرفة مفتوحًا رغم أنني أغلقته مباشرة بعد دخولي للغرفة كالعادة! لكن لم أقف كثيرًا عند هذا الأمر، وقبل دخولي لغرفة المعيشة لأطمئن على حال أبي سمعته يتحدث مع أمي بصوتٍ منخفض وبحذرٍ شديد فدفعني الفضول لأختبئ بجوار الحائط؛ لأعرف السر الذي يريدون إخفاءه عني، وبدأت سماع الحوار الذي كان يبدو أنه في بدايته..

أمي: متأكد إنه نايم ولا حاسس إنه ممكن يصحى دلوقتي ولا بعد شوية! لو صحي هتبقى مشكلة وممكن يجيله صدمة عصبيه تاني.. كفاية مرة ما صدقنا بقى كويس شوية.

أبي: لا ماتقلقيش دا نايم خالص، شكله كان سهران.. هاه في إيه؟

أمي: الولد اللي محمد بيقول إنه خرج معاه في اسكندرية وعزمه على أكل دا، هو اللي أنا قولت لك عليه السنة اللي فاتت إنه مات غرقان وجابوا صورته على التليفزيون لما جثته اختفت ولا اتسرقت باين وقلت لك حتى ماتقوليش لمحمد كفاية اللي هو فيه، فاكر؟

أبي: ااااه يعني إيه الكلام دا؟ يعني ممكن....

قاطعته أمي: استنى بس دا المصيبة إنهم قالوا في نشرة الأخبار إن التحقيقات وصلت لإن الجثه ماختفتش ولا اتسرقت ولا شغل

العفاريت دا، الجثة خال الولد اللي غرق سرقها بمساعدة المسئول عن استقبال الحالات عشان يدفنها بسرعة لأن الإجراءات كانت هتطول وهيفضل في المشرحة والمرحوم كان يا عيني شاب زي الورد لسا صغير.

أبي: يعني إيه! يعني ابني اتلبس واللي ظهر له دا يبقى.....

أمي: الله أعلم.. ما يمكن الحاله اياها رجعت له وافتكرها!

واستمر الحوار والاستنتاجات والتفكير بينهما لوقت طويل حتى انتهى بفكرة أبي أنه سوف يحضر شيخًا ليقرأ القرآن عليّ ليحصنني من أي مسّ.

كنت أقف على قدمي بصعوبة بالغة وأنا أستمع لهذا الحوار حتى كدت أن أسقط على الأرض من آثر ما خرجت به من حوار أمي وأبي لكن عدت لغرفتي وأنا أستند على الحائط وأمشي ببطء وبحذر دون أن أصدر صوتًا لخطواتي حتى لا يلاحظوا أنني سمعت حوارهما، وصلت لسريري الذي استلقيت عليه بهدوء وبدأت أن أجمع أفكاري من جديد وأربط الأحداث ببعضها، تذكرت الكشكول الخاص بي الذي أسجل فيه أحلامي عقب استيقاظي من النوم فنهضت من مكاني وأحضرته من حقيبة السفر، حيث أنني قد نسيت إخراجه أثناء تفريغ الحقيبة مع البعض من الأغراض الصغيرة الأخرى.. أحضرته وجلست على السرير ممسكا به وفتحته على الصفحات التي بها الحلم الذي سجلته وأنا في الإسكندرية؛ لأتذكر تفاصيل حلم خالد الذي رأيته يغرق فيه واسترجعت كل

ما حدث في الحلم بالتفاصيل الصغيرة والكبيرة وبعدها مباشرةً تأكدت أن الشاب الذي حكى عنه «**سيد**» ابن بائع الترمس الذي غرق مع أبيه هو.... خالد!! خالد صديقي!!!، وأن رؤية «**فهمي**» بائع الترمس بملابس الإنقاذ كان لها مدلول!؛ لأنه كانت وظيفته القديمة قبل أن يتركها، وبالنسبة لوجوده بجانب خالد صديقي فكان بسبب أنه حاول إنقاذه!، لكن الأمر المحيير الآن هو أنني تحدثت مع خالد وتواجدنا مع بعض في أكثر من مكان! وتحدثت مع «**فهمي**» البائع المتجول! والأمر المحيير أكثر الآن أنهما فقط من رأوا الفتاة الفاتنة التي ظهرت أمامي أكثر من مرة!! ماذا يعني ذلك؟ أن الفتاة التي تشبه حبيبتي هي أيضًا.....

تخلصت من التساؤلات والاستنتاجات، ونظرت إلى هاتفي وجدت الساعة السادسة ونصف وميعادي مع الدكتور «**طاهر**» في السابعة وأنا ما زلت بملابس البيت! وبالتأكيد سأتأخر عن ميعادي، أجريت مكالمة للدكتور طاهر وأبلغته بأنني سوف أتأخر وأعتذرت له عن ذلك وكان صدره رحبًا كعادته وتقبل الأمر دون أن يعرف حتى سبب تأخيري.

فتحت دولابي وأخرجت ملابسي للخروج ولبست بسرعة حتى لا أتأخر أكثر من ذلك، وأخبرت أمي أن لدي ميعاد مع الدكتور طاهر «**نعم كانت تعرف أنني أحتاج لعلاج نفسي وتعرف من البداية أن الدكتور طاهر هو المسئول عن علاجي النفسي ولا يوجد أي حرج في استشارة طبيب نفسي**».

خرجت من منزلي وأشرت لأحد التكسيات وكان السائق يبدو أنه في الخمسينات من عمره، وكان من محبي أغاني الزمن الجميل وكان ذلك واضحًا من وضعه صورة صغيرة لـ «عبدالحليم حافظ» على الزجاج الأمامي للسيارة، ومن أغنية أم كلثوم «**سيرة الحب**» التي كانت تخلق حالة من الهدوء والاسترخاء، وكان هذا السائق من السائقيين القليلين الذين لا يتحدثون كثيرًا.

وصلت للمنزل الذي توجد به عيادة الدكتور وكانت الساعة الثامنة فصعدت مسرعًا إلى أن وصلت للعيادة ودخلت ووجدت «**عزيز**» مساعد الدكتور يجلس على مكتبه الخاص في غرفة الاستقبال وعلى وجهه الابتسامة المعتاد عليها، وعندما نظر ليرى من دخل العيادة ووجدني أمامه زادت ابتسامته وكأننا أصدقاء قدامى لم نرَ بعضنا منذ وقت طويل! فابتسمت له أنا الآخر، فقال وهو يصافحني بابتسامة: عاش من شافك يا أستاذ محمد.. أخبارك أيه؟

ابتسمت له وقلت: الحمد لله تمام.. عامل إيه انت يا عم عزيز؟

- الحمد لله في نعمة، بس انت فينك كدا من آخر مرة كنت هنا والدكتور استأذن يمشي؟
- كنت في اسكندرية يا عم عزيز والله بغير جو شوية.
- حمد لله على سلامتك يا رب تكون قضيت لك يومين حلوين.

قلت لنفسي بسخرية: آه دول حلوين بشكل.

ثم قلت لـ «**عزيز**»: آه الحمد لله حلوين.

ـ الدكتور عنده كشف قرب يخلص ارتاح يا أستاذ محمد شوية على ما يخلص.

ـ ماشي يا عم عزيز شكرًا.

وجلست على أحد المقاعد الموجودة أمام باب غرفة الدكتور وكالعادة أخذني عقلي إلى مكان آخر، فوجدت نفسي أتذكرها من جديد ولكن ليست الذكريات الجميلة المعتادة بل وجدت نفسي أرى الذكريات المؤلمة!! ولا أعرف لماذا تأتيني هذه الذكريات وأنا لا أبحث فيها من الأساس ولا أريد تذكرها!!، فبرغم أن حبيبتي كانت لها الكثير من الإيجابيات ولكن كان لديها سلبيات كأي إنسان يخطئ ويصيب.. كانت عندما تخطئ لا تعتذر كانت دائمًا تنتظرني أنا لأعتذر لها عن أخطاء لم أفعلها!! وإذا لم أفعل ذلك كان من الممكن أن نظل أيامًا كثيرة لا نتحدث فيها ولا نرى بعضنا، وتذكرت بعض مواقفنا السيئة التي كانت تجعلني أنام ودموعي لا تفارق وجهي، لكن قبل أن أتعمق في هذه الذكريات التي لا أحب تذكرها ناداني «**عزيز**» وطلب مني الدخول للدكتور بعد خروج الحالة التي كانت بالداخل وأنا كنت في حالة أشبه بالنوم لا أرى ولا أسمع أي شيء من حولي، وهو الأمر الذي دفع «**عزيز**» ليقول: انت تعبان أوي كدا يا استاذ محمد؟

فأظهرت التعجب على وجهي وقلت: أنا؟ دا اشمعنا يا عم عزيز؟

قال: كل مرة وانت مستني دورك بتقعد سرحان ومابتدراش بأي حاجه حواليك!، دانا ناديت عليك كتير أوي لحد ما سمعتني انت لو مكنتش مفتح عينيك ع الآخر كنت افتكرتك نايم والله.

قلت له بابتسامة مصطنعة: المشاكل والضغط يا عم عزيز والله.

قال: يلا ربنا معاك، وان شاء الله الدكتور هيساعدك.

انتهى حديثي مع عم عزيز بهذه الكلمات ثم تركته واتجهت لغرفة دكتور طاهر واستأذنت الدخول، وكان مشهد دخولي عليه في غرفة الكشف هو نفس مشهد دخولي العيادة بنفس ابتسامات وتعابير وجه «**عزيز**»، هذه الغرفة أشعر فيها بالاطمئنان بمجرد الجلوس فيها وقبل أي حديث بيني وبين الدكتور حتى! أشعر أنني أريد تبديل كل الطاقات السلبية التي بداخلي بأخرى إيجابية.

بدأت الحديث مع الدكتور وقلت: إبنك عامل إيه يا دكتور دلوقتي؟

رد مبتسمًا: لا الحمد لله بقى أحسن من الأول.

بدأ الدكتور بإخراج السي دي من غلاف مكتوب عليه «**بيتهوفن**» ووضعه في الكاست وبدأت موسيقي بيتهوفن

تتسرسب إلى كل أرجاء الغرفة لتملأها بالدفء والأمان وتشجعني على الحديث.

صمت معتاد لبضع دقائق.. شق الصمت الدكتور عندما طلب مني أحكي ماذا حدث في الأيام السابقة منذ آخر لقاء لنا في العيادة.

بدأت بالحديث قائلًا: أنا شفت حاجات غريبة! مش لاقي ليها تفسير واضح مش فاهمها من الأساس.. أنا شفت واحدة شبه حبيبتي بالظبط وشوفت صاحبي اللي ميت من سنة واتكلمت معاه!، وشفت واحد بتاع ترمس وكلمني وكلمته وطلع هو كمان ميت!! هما دول عفاريت؟

ابتسم وقال: كمل وبراحة واهدى انت ليه قلقان..

قلت: أنا شوفتها وانا ببص من الشباك ولما نزلت كانت لسا واقفه على ما عديت الطريق ملقتهاش! وشوفتها مرة تانية راكبة ميكروباص وبتعمللي باي وهي بتضحك! ومرة تالته وانا اللي راكب الميكروباص وهي بره في الشارع وبتضحك لي بردو!!. وصحبي خالد! بقالي سنة مكلمتوش واتفاجئ وانا قاعد على البحر بيخبطني على كتفي وبيسلم عليا وبيتفق معايا على خروجه وخرجنا وكلنا وحتى وصلني لمحطة القطر و....

الدكتور: وإيه؟ حصل ايه هناك؟

ـ وطلب مني نتصور صورة للذكرى واتصورنا عندي على موبايلي.

ـ طب ممكن أشوف الصورة!

أخرجت هاتفي ودخلت إلى الصور وكانت المفاجأة.. أنا فقط الموجود في الصورة!! وعندما ظهرت آثار الدهشة على وجهي طلب مني الدكتور أن يرى الصورة فأعطيته الهاتف ليراها، فابتسم ابتسامة خفيفة وهز رأسه ووضع الهاتف أمامه على مكتبه، وطلب مني أن أُكمل ما بدأته..

ـ أنا كنت بتعامل معاه وبشوفه عادي جدًا وبكلمه زي ما بكلمك دلوقتي!! وكمان أنا شوفته في الحلم وهو غرقان وشوفت الراجل بتاع الترمس وهو لابس ملابس الانقاذ وقاعد في المركبة اللي عليها جثة خالد صحبي! مكنتش فاهم إيه العلاقة بس عرفت بعد كدا إن دي كانت شغلته القديمة قبل ما يشتري عربية الترمس..في إيه يا دكتور؟

توقفت عن الحديث في محاولة لتمالك أعصابي واستمر دكتور طاهر على هدوء لدقائق، ثم قال: أنا عايزك تبقي أهدى من كدا، إنت كويس جدًا ومفيش حاجه.. إرتاح وهدي أعصابك.

وأكمل حديثه وقال: تفتكر الأصوات اللي كنت بتسمعها في الأوضه بتاعتك من فترة واللي أنا متأكد إنك ما زلت بتسمعها! انت ضحية لدوشة كبيرة جواك، ومش انت لوحدك اللي بتسمع الأصوات دي.. لأ دا في ناس بتسمعها عشرات المرات في اليوم وفي تصور إن الأصوات دي زي ما قلت لك قبل كدا بتعبر عن

الحاجه اللي نفسك فيها ومش لاقي حد ينفذها لك وعقلك الباطن بيخلق الأصوات دي عشان يريحك وفي تصور تاني إن دا ممكن يبقى حوار مع نفسك مثلًا وفي تصورات كتير في موضوع الأصوات دا..

ثم صمت الدكتور لحوالي دقيقتين وكأنه يعطيني فرصة لاستيعاب حديثه وتحليله للأمر، ثم استكمل: أنا بفكرك بموضوع الأصوات دلوقتي عشان اللي انت شوفته ممكن يكون تطور من الموضوع دا.. وانت عشان شخص عاقل ومثقف هتقدر توازن بين الحقيقة والخيال «**التهيؤات**» بين الواقع والوهم بين المنطقي والغير منطقي، وكل مرة بتدخل صراع الأصوات دا بيكون اختبار واقعي ليك عشان تعرف قدرتك في مدى سيطرتك على نفسك وتحكمك فيها لأنك لو مقدرتش تعمل كدا هتقع في فخ الشيزوفرينيا اللي هي «**الفصام**»..لو الأصوات دي اختفت بالتدريج من حياتك لما تلاقي الشخص اللي تفرغ معاه احتياجاتك ويكملك هترجع أحسن من الأول في كل حاجة بس لو ملقتش الشخص دا هتبقى فريسة للنداءات الوهمية وهتفضل غرقان في بحر الكلمات اللي بتتقال لك من مصدر مش معروف وهتفضل محبوس جوا أوضتك ونطاق تفكيرك هيفضل يصغر لحد ما يوصلك للدرجة اللي هتحس فيها بإنك بقيت مشلول! ومهما صرخت كل صرخاتك مش هتخرج منك ومش هتبقى أعلى من الصوت اللي بتسمعه دايمًا بيناديك.

ثم عاد صمت الدكتور من جديد ليعطيني مساحة لإدراك حديثه، قلت: بيبقى إحساس صعب أوي لما تبقى مشوش من كتر الأفكار والصراعات اللي جواك، وبيبقى أصعب وأصعب لما تتمكن منك وتسيطر عليك، ساعتها بس بيكون الحل إنك تنسحب وتبدأ تعمل لنفسك عالم لوحدك في خيالك انت بس عشان تهرب من كل الضغوط اللي انت فيها.

قال الدكتور: والنتيجة؟ النتيجة إنك بتبقى مش مهتم ولا مدرك بأي حاجه بتحصل برا العالم بتاعك ودا بيقلل ويضعف قوة تركيزك اللي تكاد تنعدم، مع كسور في الذاكرة وشوية وهتحس نفسك برا الدنيا وهتبدأ تعيش في عالم كله تهيؤات.. ومش هتقدر تكمل! اللي بتفكر فيه غلط حاول تعيد تفكير فيه تاني وفكر في اللي قلته ليك.

- تمام يا دكتور، وبالنسبة للي حصل لي في إسكندرية؟
- انت كل ما بتنزل إسكندرية بتكلم مين أو بتقعد مع مين؟
- خالد الله يرحمه ومبقعدش مع غيره ولما كنت أروح هناك وأنا مخنوق مكنتش أكلم غيره.
- وقعدت أد إيه ماتكلموش؟
- سنة أو سنة ونص!
- طب وهو من الطبيعي لما اتنين اصحاب زيك انت وخالد واضح انكم تعرفوا بعض من فترة مش قليل وكمان

بتحكي له اللي مضايقك وأصحاب أوي كدا إنكم ما تتكلموش كل دا؟

لم أعط الدكتور أي رد ولكن كنت أحاول أن أفهم ما يريد توصيله لي من هذه الأسئلة، وكان عندي اعتقاد أن الدكتور طاهر هذه المرة لن يفيدني بشيء بل يحاول إضاعة بعض الوقت..

فاستكمل حديثه وقال: ظهور صحبك وخروجك معاه وحكايتك له عن البنت اللي شوفتها نفس فكرة الأصوات اللي بتسمعها.. ظهوره مجرد تهيؤات أو عقلك خلقه في الوقت اللي انت كنت محتاج حد تكلمه ويسمعك وتخرجوا مع بعض والدليل على كدا أكتر من حاجه لما روحتوا مثلًا تتعشوا سوا مدخلش يحاسب رغم إنه كان من المفروض إنه عازمك! والصورة مثلا اللي المفروض انكم مع بعض فيها وفجأة لقيت نفسك لوحدك فيها كل دا من نسج خيالك، وبالنسبة للراجل بتاع الترمس والحلم اللي انت حلمته.. دا كان تنبيه واشارات عقلك بيبعتهالك بطريقة غير مباشرة عشان يفوقك ويوصلك رسالة موت صاحبك وأنت استجبت ليها بس استجابتك كان ماليها الخوف كنت بتدور ورا حقيقة الحلم وخايف تتصدم بالحقيقة اللي انت كان عندك شك فيها اللي هي عدم وجود خالد صاحبك من الأساس!. انت اكيد كنت تعرف الراجل بتاع الترمس دا او شوفته قبل كدا وكلمته قبل المرة اللي فاتت دي لأنه مش هيظهر لك في الحلم كدا ويكلمك من غير تعاملات بينكم ولو لمرة واحدة قبل كدا...

نظرت إلى سقف الغرفة ورجعتُ بذاكرتي لعامين أو عامين ونصف منذ أن كنت في الإسكندرية المرة قبل الأخيرة، وبالفعل الدكتور كان معه حق، لقد تحدثت مع هذا الرجل من قبل عندما كان يتحدث عن «**النادي الأهلي**» بعظمه مع أحد أصدقائه البائعيين وتدخلت في حوارهم وتحدثنا ربع ساعة تقريبًا ومن يومها وأنا ألقي السلام عليه كلما مررت من أمام عربته..تذكرت هذا ونظرت إلى الدكتور وعيناي ترمش أريد أن أقول له أن كل ما قاله صحيح وأن اعتقادي في أول الحديث كان على خطأ وكان يجب أن أتمهل في الحكم على أي شيء.

قاطع تفكيري الدكتور وقال بابتسامه: سكوتك ونظراتك ليا بتقول إن فعلًا كان في كلام بينكوا أو كنت تعرفه قبل كدا؟

ـ أيوه أنا فعلًا اتعاملت معاه قبل كدا! يعني أفهم من كدا إنه مش عفريت والكلام دا؟

ضحك وقال: كويس إنك وصلت لوحدك وعرفت إن ولا في عفاريت ولا أي حاجه من الكلام الفاضي دا.. هي الفكرة كلها إنك محتاج ترتبط وتتجوز وتكون أسرة عشان كل الحاجات دي تبعد عنك، انت مش صغير يا راجل دا انت فوتجرافر أد الدنيا لازم ترجع شغلك وتعيش حياتك الطبيعية عشان كل الأوهام دي تبعد عنك.

ضحكت وقلت: تمام يا دكتور.. طب ومين اللي ظهرت دي؟ أنا متكلمتش معاها خالص ولا قربت منها بس أنا كان عندي اعتقاد إن هي كمان.....

قاطعني وقال: عفريتة واحدة ماتت وكدا، صح؟ لا هي مش حاجة من دول.. هي فعلًا ممكن تكون إنسانه حقيقية ودا احتمال مش قوي بنسبة كبيرة آه بس وارد! لكن الاحتمال الأقوى إن البنت تكون زي خالد صحبك بردو تطور للأصوات دي، وأنا قلت لك الحل في كل دا!

لحظات من التفكير، قلت بعدها: بس دي شبه حبيبتي، شبهها أوي! طب أنا هعمل ايه لو ظهرت لي تاني؟ أبعد ولا أقرب؟

قال: احنا لسا مش عارفيين حقيقتها هل هي فعلًا هتبقى موجودة في الواقع؟ ولا موجودة بالنسبة ليك انت بس اللي شايفها؟. أما بالنسبه لحكاية الشبه مفيش فيها قلق عادي ممكن تلاقي ناس شبهك وناس شبهي دا أمر طبيعي، بس أنا برجح إنها مش هتظهر تاني وهتطلع زيها زي خالد وزي الراجل بتاع الترمس يعني مجرد هلاوس وهتروح بالعلاج .

دقيقة من الصمت مرة أخرى ثم قال: طب انت في عندك أي حاجة تاني بتشتكي منها ولا تعباك؟

- النوم.. مابعرفش أنام بسهولة ولا قادر أظبط مواعيدي بسبب الفِكر بتاع كل ليلة في كل حاجة، تمام..

- وإيه تاني غير النوم؟
- ولا حاجه هو النوم والصداع.
- كدا كدا من الطبيعي إن يجيلك صداع عشان مواعيد نومك مش مظبوطة، وانا هكتب لك على نوع مهدأ كويس هيريح جسمك وهيساعدك على النوم، وتاخده في المواعيد اللي أنا كاتبها بس.

الفصل الثالث

بين الواقع والخيال

«إذا خانك تفكيرك بأنك تستطيع شرب نهر من أول رشفة.. فعليك إكمال الكوب إلى آخره».

أخذت الروشته من دكتور طاهر وخرجت من العيادة وأنا أضع كل ما قاله أمامي وأفكر فيه، وأثناء عبوري للطريق وأنا أنادي على أحد التاكسيات لم أنتبه للطريق وإذا بإحدى السيارات تأتي من مسافة بعيدة مسرعة، وأنا أراها وأشاهد سرعتها، وأقف في مكاني رغم صراخ من المارة على جسدي الذي أوشك أن يُحطم! لا أعرف إذا كانت رغبتي أن تصدمني السيارة أم عقلي غير قادر على التحكم في جسدي ليحركه بعيدًا!. وجاءت لحظة الاصطدام المنتظرة التي كانت شديدة الألم، نعم أتذكر المشهد ومقدمة السيارة تصطدم بي وأنا أنظر إليها لدرجة أنها قذفتني على بُعد ليس بالقليل، أتذكر مشهد المارة من حولي والدماء تلطخ صدري ووجهي، والناس من حولي يصرخون ويحاولون تحريك رأسي بهدوء؛ ليتأكدوا إذا كنت على قيد الحياة أم فارقتها، مرّت أمامي هذه الأحداث وأنا ما زلت في وعيّ، ومن ثم بدأت عيني تغيب عن الوعي تدريجيًا وسط محاولاتي المستميته لفتحهما، ولكن كانت صدمة السيارة قوية للغاية.

بدأ شريط حياتي يعاد أمامي.. أرى أمي وأبي وأسمع ضحكاتهما وأتذكر حديثنا في الأيام السابقة وأرى دكتور طاهر وحديثنا منذ دقائق يعاد منه بعض التفاصيل وأرى... أرى خالد! نعم خالد صديقي يناديني ويمد يده ويقول: تعالى يا محمد إنت واحشني، هو أنا موحشتكش؟

قلت له والدموع على وجهي: وحشتني أوي يا صاحبي.. أنا جايلك، بس أمانة عليك لو اتأخرت خلي بالك من الغاليين اللي عندك.

بينما أنا في آخر لحظات حياتي أشعر بها في غرفتي في المستشفى وأشم رائحتها التي لا أتوه عنها أبدًا تملأ المكان، أرى الغرفة وكأن عيني مليئة بالغشاوة وأراها معي برؤية ضبابية في الغرفة تقف أمام الباب وعيناها مليئة بالدموع وأسمع دقات قلبها تتزايد أكثر فأكثر.

قلت بصوتٍ يملأه الحزن يمتزج باللهفة وعيني بها دموع الفرح ووجهي يحاول الابتسام:

- ليلى! انتي عرفتي ازاي إن أنا هنا؟ وجيتي ليه في وقت متأخر زي دا! أنا كويس ماتخافيش، امشي دلوقتي الوقت اتأخر عليكي برا.

ردت وملامح القلق والحزن تغمر وجهها: مش مهم عرفت ازاي! انت ليه مسمعتش كلامي وليه منفذتش وعدك ليا؟ انت مش وعدتني إنك هتحافظ على نفسك عشاني؟

نظرت إليها بشفقة ولا أجد كلمات لأرد عليها لكنها لم تنتظر ردًا وبدأت بالاقتراب مني وأمسكت بيدي ويا لها من راحة كنت أفتقدها، لم أشعر بها طوال فترة فراقنا، بمجرد حضن يدها ليدي شعرت أنني أمسك العالم بيدي وأنها أزاحت كل أوجاع الدنيا عني..

وجدت نفسي أقول لها وهي تمسك بيدي: عارفه.. أنا ما أكلتش مرة في بعدك وشبعت للآخر، ولا نزلت مرة وسط الناس وما دورتش على ملامحك في وشوشهم، ولا نمت يوم من غير ما أقوم قلقان أفكر فيكي وفي اللي عيشناه سوا، دايمًا كان فيه جزء ناقص، شيء مش مخلي الدنيا كاملة في عينيا، آه عايش لكن عايش بـ نص حياة..

لم ترد على كلماتي لكنها شدت على يدي وابتسمت ودموعها ما زالت على وجهها لا تفارقها!

أكملت حديثي: حاسس إنك مش بعيدة عشان استناكي! ولا انتي معايا عشان أفرح بوجودك جنبي ولا انتي حرماني منك عشان أفكر بس إني أنساكي.. أنا ساعات ببقى حاسس إن انتي معايا وساعات مش معايا دايمًا في نص كل حاجة.. ودايمًا محتاجك جنبي.

ردت هذه المرة ولكن بـ قُبلة على جبيني، ثم وجدت الباب يفتح وإذا بي أجد والدتها التي كانت لا تعرف شيئًا عن قصتنا وكانت بها ملامح القلق وكأنها تعرفني وبيننا أحاديث سابقة،

فتملكني شعور مزيج من التعجب والفرح! معنى أنها قلقة بشأني وأتت لزيارتي إذًا ليلى أثرت عليها وحدثتها كثيرًا عني لدرجة أنها أتت في هذه الساعة المتأخرة من الليل للاطمئنان على أحوالي!

قالت السيدة «**سلمى**» والدة حبيبتي: انت كويس يا ابني؟ مش تخلي بالك من الطريق وانت ماشي.

قلت لها وأنا أبتسم: الحمد لله يا طنط جت سليمة، أنا مبسوط إني شوفتك واتعرفت عليكي.

ابتسمت هي الأخرى وقالت: انت راجل يا محمد وفيه حاجات كتير هنتكلم فيها بس لما تقوم بالسلامة كدا وتخرج من هنا الأول.

كان حديثها استكمالًا لشفائي فكان بمثابة مسكن أقوى من كل أنواع المسكنات، شعرت وأن كل شيء أصبح يبتسم لي، وكل ما مرَّ من وجع سينتهي ويذوب مع كل الذكريات المؤلمة.

مرت دقائق ووجدت باب الغرفة ينفتح عن آخره وأمي وأبي يسرعان بخطواتهما تجاهي ويحتضناني وهما يبكيان، وكعادة أبي يداعبني ويقول: يلا قوم البس عشان نروح بيتنا ولا صحبك مش واحشك؟ هتعمل تعبان يعني! دانت صحتك جت على الحادثة يلا بلاش دلع.

ضحكت أنا وكل الموجودين وقلت: حاضر انت روح البيت وهتلاقيني حتى قاعد على السرير أنا وصحبي اللي زمانه دلوقتي قالب البيت عليا وفاكرني مستخبي منه.

وفي وسط الضحكات والفرح دخل دكتور طاهر علينا الغرفة بالورود والشيكولاته يبستم في وجهي ويقول: حمدالله على سلامة الفنان.

ابتسمت له وقلت: الله يسلمك يا دكتور.

وقمت بتعريف المتواجديين في المكان على بعضهم، وبعدها بدقائق دخلت الممرضة لتغيير المحلول ولتطلب من المتواجديين أن يخلوا المكان لإراحتي بعض الوقت من مجهود الحديث والمناقشة معاهم والصوت العالي مِمَن حولي، وبالفعل خرج الجميع وأخلوا المكان من حولي.

مرَّ وقت ليس بالقليل على تواجدي في المستشفي، وخرجت وأنا أستند على عكاز لأحاول ممارسة حياتي الطبيعية الذي أصبحت الآن سعيدة بوجود حبيبتي مرة أخرى جانبي.

دخلت المنزل وأنا أسمع صوت هاتفي لأنظر إليه وأجد حبيبتي هي من تتصل بي وكانت المكالمة يملأها الشوق لسماع صوتها ولهفتي لحديثنا كسابق عهدنا..

- وحشتيني.

لم ترد ولكن سمعت صوت ضحكتها التي كنت أتمنى الموت لأسمعها.

- مش هتردي يعني؟ لا يبقى أقفل بقى.

- لأ استنى، وحشتني أكتر..

- عارفه طول الفترة اللي فاتت دي كان نفسي أعمل أي حاجة عشان بس أشوفك واسمع صوتك تاني، كنت تايه أوي من غيرك بس أنا بحمد ربنا إنك رجعتي تاني.
- وأنا كنت أكتر منك ومش مصدقه إننا هنعيش مع بعض.
- لا صدقي لأني لو مش هعيش معاكي، مش هعيش مع حد تاني.
- عارف أنا دلوقتي أسعد واحده في الدنيا ونفسي نكمل مع بعض أوي، بس هو ينفع؟
- آه ينفع وغصب عنك كمان!
- هههههههه حقك بعد لما ماما بنفسها جاتلك وبقيت عارفه كل حاجه وكمان واقفه في صفك في أي حاجه وكأنك انتي اللي ابنها مش أنا اللي بنتها.
- طبًعا دي بقت حبيبتي دلوقتي دانا هتجوزك واخدها تعيش معانا عشان تدافع عني على طول.
- كلهم بيقولوا كدا في الأول وبعد الجواز كل دا بيتغير. بس يا حبيبتي، كفايه عُقد هتعقديني والله.
- قصدك إيه يا أستاذ؟
- كل خير يا حبيبتي، كنتي حلوة كدا ليه يوم ما جيتي المستشفى.

- نعم؟ يعني ايه، يعني قصدك إن أنا وحشه بقى وكنت حلوة يوم واحد بس.
- عرفتي منين؟
- والله؟ طب تصدق بقي أنا اللي هقفل.
- هههههههه استني بس هقولك.
- نعم؟
- هو انا مهما شفت هشوف اجمل منك؟ انتي اللي خلقك مخلقش غيرك!! انتي في كل حالاتك حلوة مفيش مرة عيني شافتك فيها إلا وحمدت ربنا على النعمة الكبيرة اللي انا فيها..
- على فكره بقى كسفتني جدًا و...
- بحبك وهنتجوز وهنبقى أسعد اتنين في الدنيا...

انتهي حديثنا والمكالمة بعد أن استمرت لحوالي ساعة ونصف من الحب والضحك واتفقنا على أن نتقابل اليوم لنعوض كل ما فاتنا، لكن طلب مني أبي وأمي أن أخرج إلى صالة المنزل لأجلس معهما لنتحدث في أمر هام، وخرجت.

أمي: نفسي أفرح بيك قبل ما اموت يا محمد.

قلت: بعد الشر عليكي يا ست الكل، هتفرحي بيا قريب وهتشيلي ولادي كمان وهتجوزيهم.

أبي: بيتهيألي العروسة كلنا عارفنها من زمان، مانت مفضوح وبتحبها من إعدادي وكنت كل يوم تحكيلنا عنها وإنك نفسك تتجوزها.. صحيح كنا بنتريق عليك أنا وأمك وبنقول عيل صغير وبيتكلم في حب وجواز بس انت كسفتنا احنا الاتنين وانتصرت في الآخر وطلعت راجل تشيل مسئولية بيت.

قلت ضاحكًا: إيه دا انتوا متفقيين عليا بقى! وعايزني اسيبلكم البيت واضح إني خانقكم أوي!

قال أبي مازحًا: أيوه يا محمد انت خانقنا وعايزينك تمشي.

قلت: طب مش تاخد رأي العروسة الأول؟

ضحك وقال: وأنا هستناك تقول لي كدا مثلًا؟ منا خلصت كل حاجه مع مامتها في المستشفى بس كنا مستنينك تقوم بالسلامة.

غمرت قلبي السعادة وقلت في لهفه: بتتكلم جد والله؟

قال: أمال ههزر معاك؟ أمال احنا جايبينك ليه من أوضتك يا ابني.

قلت: طب هاه امتى؟

ماما: واضح إنك مستعجل أوي يا أستاذ.

قلت ضاحكًا: يعني من إعدادي لدلوقتي وتقولي لي واضح إنك مستعجل؟ دانا هخطفها لو ما اتجوزناش أنا وهي وهيبقى انتوا السبب.

ضحكت أمي وقالت: لا وعلى ايه يا مجنون! أنا خدت رقم مامتها وهكلمها وهنروح نقعد احنا ستات مع بعض نشوف أراء أهل البنت وأعرفهم عليك أكتر وعلى شغلك وشهادتك وكل حاجه عنك، وأشوف إذا كانوا راضيين ولا لا!

قلت مازحًا: هيوافقوا طبعًا هيلاقوا عريس أحسن مني فين يعني يا ست الكل؟

مازحني أبي وقال: أنا لو من أهلها موافقش بصراحة، مش عارف البنت ومامتها بيحبوك ليه!

قلت: انت بتحقد عليا يعني؟ ماشي ماشي.

انتهينا من حديثٍ دام لوقت طويل، ثم استأذنت للنزول بحجة أنني سوف أقابل بعض الأصدقاء القدامى لكن حقيقة الأمر أنني كنت ذاهبًا إليها حسب اتفاقنا أننا سوف نعوض كل شيء.

تقابلنا عند موقف السيارات وركبنا إحدى السيارات الأجرة المتجهة إلى مكاننا المفضل «**وسط البلد**» والذي يحمل تقريبًا أغلب ذكرياتنا الجميلة في السنوات التي قضيناها سويًا، حيث اتفقنا أن ندخل أحد الأفلام الأجنبية في سينيما من سينيمات وسط البلد، ركبنا وجلسنا إلى جانب بعضنا ووضعت سماعات الأذن واحدة في أذني والأخرى في أُذنها وأعطيت لها الهاتف لاختيار الأغاني والمقطوعات الموسيقية التي تريدها وأنا على ثقة تامة أنها ستختار ما أريد أن أختاره أنا وبالفعل بدأت بتشغيل الأغاني الهادئة لـ «**فيروز**» وبعض من مقطوعات البيانو الحزينة..

ساعة ونصف من الهدوء إلى أن وصلنا لمكان السينيما حتى أننا كنا نرتدي السماعات في طريقنا أثناء السير في الشارع ونحن متشابكي الأيدي، ودخلنا قاعة السينيما وفي أحداث الفيلم كنا نتفاعل لدرجة أن الدموع كانت تنزل من أعيننا دون الشعور بها وعند ملاحظة أحدنا للآخر وهو يبكي كان يضحك عليه واستمر الوضع على ذلك إلى نهاية الفيلم، وخرجنا والسعادة تملأنا نتمنى أن الوقت يقف عند هذه اللحظة.. يقف ولا يتحرك نهائيًا فما زالت القلوب تحتاج أن تشبع بالمزيد من البهجة والذاكرة تحتاج أن تُملأ بالذكريات والأوقات السعيدة والروح تشتاق الإحساس بالراحة التي كانت تفتقدها منذ وقت كبير..

كان الوقت يحكمنا كعادته وكان أمامنا ساعة واحدة فقط للرجوع لمنازلنا ولا نعرف كيف نقضيها فأي شيء سنفعله سويًا سيكون له طابع خاص ومبهج لنا!، لكن بعد تفكير قررنا أن نظل هذه الساعة المتبقية في الشوارع لا نفعل شيئًا سوى أن نتمشى في الشوارع ونشاهد الناس والأطفال وكل تفاصيل الشارع، حتى توقفنا أمام إحدى القصور التي كانت صاحبة تراثٍ قديم من حيث الإنشاء أو الشكل الخارجي له ودار بيننا حديث حول أمانينا ونحن ننظر إلى عظمة هذا القصر.

- عارفه أنا كان نفسي أوي أكون عايش في زمن القصر الجميل دا وتكوني معايا في نفس الزمن ونتجوز ونعيش في الشيء العظيم دا.. يااااه بجد لو دا كان القصر بتاعنا.

- آه ونعيش بقى زي الملوك وطباخ يعملنا الأكل والجناييني يزرع الجونينة ويقص الشجر والشغالات يصحونا من النوم وتبقى علاقتي بيك إني بقعد معاك على السفرة أفطر ومنشوفش بعض في اليوم إلا ساعة ولا ساعتين وباقي اليوم انت في شغلك وأنا في شغلي مش كدا؟ طب دي تبقى حياة! هيفدنا بإيه كل دا واحنا مش بعض.
- آه دا واضح إن الأفلام مأثره عليكي أوي.. هو لازم عشان نعيش في قصر زي دا يبقى عندنا شغالات وخدم يعملولنا كل حاجة ونقوم من النوم نفطر كروسون ونشرب شاي باللبن وميبقاش في حياتنا حاجه بقى غير الشغل والأكل والشرب ونيجي آخر اليوم ننام ويبقى دا روتين حياتنا، وفي الأجازة ناخد الولاد ونروح النادي نسيبهم يلعبوا وانتي تقعدي مع فريدة هانم وانا اقعد مع مراد بيك وبعد ما كل واحد يخلص قعدته نقوم نركب عربيتنا ونمشي وفي الطريق نفضل ساكتين انتي نايمه مع الولاد وانا بشرب سيجارتي وبسوق.. مش كدا؟
- إيه دا انت كنت بتتفرج معايا على نفس الأفلام؟
- يا حياتي أنا حافظك أكتر من نفسك!!. أنا لما بقول نعيش في قصر زي دا يعني نبقى احنا فيه بس وهيبقى عندنا بواب للحراسة مش أكتر، واصحى كل يوم على

صوتك وانتي بتقولي لي يلا يا حبيبي عشان جهزت الفطار ومتتأخرش على شغلك، فأقوم واقولك صباح الخير يا حياتي وننزل من الأوضه بتاعتنا على السفره على طول واحنا إيدينا في إيد بعض، ونخلص فطارنا وننزل على الجونينه نسقي الورد والشجر مع بعض ونغرق بعض بالمية واقطف وردة واحطها في شعرك وندخل البيت تاني واحنا فيه متغرقيين ومتبهدليين ونغيير اللبس بتاعنا ونلبس عشان الشغل وننزل واخدك معايا في العربية وطول الطريق نشغل الأغاني اللي بنحبها، وتنزلي انتي على شغلك وأروح أنا على الشغل بتاعي وكل يوم اعدي أخدك ونروح البيت نقف في المطبخ نعمل الأكل مع بعض ونبهدل الدنيا ونضطر ناكل الأكل اللي احنا بوظناه ومعرفناش نعمله بس مضطريين بقى عشان جعانين، ولما نخلف والولاد يكبروا ويوصلوا لمرحلة المدرسة بقى وتصحينا انتي كلنا وتجهز لنا الفطار وننزل نوصلهم لحد الباص بتاعهم وبعد كدا بقي نروح احنا شغلنا، ونتجمع كلنا ناكل مع بعض بقى بالأكل بتاعك اللي ميتاكلش دا.

- وانا اللي كنت لسا هحب فيك واقولك اني ظلمتك وكنت فاهمه غلط!، أكل مين يا حبيبي اللي ميتاكلش انت

أصلًا جربته يعني؟ عارف مش هخليك تجربه خالص وشوف بقى مين هيأكلك بس.

- لا لا خلاص دانتي أكلك اللي أنا مجربتوش دا أحسن أكل في الدنيا ولا أحسن شيف يعمله.
- لا يا حبيبي خلاص ابقى قضيها أكل من برا منا أكلي ميتاكلش!
- يا حبيبتي احنا بنتخيل والله خلي خيالك واسع شوية، وبعدين الجمال دا كله يعمل أكل وحش؟
- مممم أيوه كدا.

واستمر الحديث أكثر من ذلك حتى وصلنا لنصف ساعة كاملة ونحن نقف أمام عظمة القصر ونتخيل أننا نملكه ونعيش فيه.

مشينا في الشوارع الأخرى حتى وجدنا أنفسنا على مقربة من مراسي المراكب النيلية ووجدتها مثل الأطفال تمامًا تجري تجاه هذه المراكب وتطلب مني أن نستأجر واحدة لفسحة نهرية قصيرة، قالت وهي تركض مسرعةً وتسحبني من يدي: الله أنا بقالي كتير أوي مركبتش مركب في النيل، وتقعد تلف بيا كتير، وانزل إيدي ألمس بيها الميه، واتصور وانا واقفه والنيل ورايا.

قلت وأنا أركض خلفها: طب براحه بس متجريش وهعملك اللي انتي عايزاه.

أخذتها واستأجرنا أحد المراكب وكنا نحن الاثنان فقط وصاحب المركب الذي كان شعره الأبيض يملأ رأسه ولحيته.. وكانت أغاني «**عبدالحليم**» تشق الصمت الذي كنا فيه، حيث كنا ننظر إلى بعضنا بخجل ولا ينطق أحدنا بكلمة واحدة كان كل ما نفعله نبتسم لبعضنا وكأننا أغراب لا نعرف بعضنا وكلٌ منا يريد أن يلفت انتباه الآخر، ولكن عندما قال «**عبدالحليم**»: على قد الشوق اللي في عيوني يا جميل سلم..

مازحتها: إيه يا جميل مش ناوي تسلم ولا هنفضل ساكتيين كدا؟

نظرت إلى يديها وبدأت حُمرة الخجل المفرطة تظهر على وجهها ولم ترد بل اكتفت بابتسامة.

قلت لها وأنا أضحك: يا حبيبتي سيبك من شغل الكسوف دا مش حلو عشانك والله.

ـ ليه بقى؟ مش بنت انا يعني ولا انت بتكلم واحد صحبك؟

ـ مش أنا قلت لك قبل كدا انتي غير أي بنت وانك مينفعش تقارني نفسك بيهم؟ ولا كمان كلامي بيتنسي يا هانم؟

ضحكت وقالت: أبدًا يا سي محمد دانا قاصده أقولك كدا عشان اسمع كلمتين حلويين بس.

ـ برافو ممثلة هايلة، يا ترى مبسوطه بقى ولا لا؟

- طول ما احنا مع بعض انا مبسوطه مش مهم احنا فين او مع مين المهم وجودك معايا وجنبي.
- يارب نفضل مع بعض دايمًا ومتفرقش بينا حاجه ابدا، ثم عقبت على كلامي وقلت: شوفتي بابا وماما عايزيين يجوزوني واحده كدا من جيرانا بس بصراحه هي حلوه.
- شكلك كدا عايز تترمي النهارده في النيل وهيبقى يوم مش فايت على دماغك يا محمد.
- وانا مالي هو انا اللي بقول دا هما!!
- آه وانت مبسوط أوي! وبعدين انت عرفت منين انها حلوة؟ دا انت مركز معاها بقي.
- أنا؟ لا دا عشان بس بشوفها وانا طالع ووانا نازل فبص عليها غصب عني.
- غصب عنك آه.. والمفروض بقى أصدق؟ واضح انها عجباك روح لها.
- أنا موافق.

قالت وكانت عيناها بدأتا بالاحمرار وعلى وشك البكاء: أنا عايزه أروح دلوقتي، ممكن؟

ضحكت أنا وقتها وقلت: يخربيتك انتي صدقتي؟ أنا بهزر معاكي! جارتي مين دي ولا غيرها اللي أبص لها وانتي معايا؟ هو في حد يبقى معاه القمر دا وعينه تروح يمين ولا شمال؟ وكمان

بابا وماما قالوا لي قبل ما انزل النهارده انهم كلموا مامتك وتقريبًا فتحوا كلام معاها في موضوعنا، وماما ممكن تيجي تزوركوا في البيت قريب عشان تشوف رأي أهلك ولو كدا أنا وبابا وعمي هنيجي ونخلي كل حاجه رسمي.

بدأت تعابير الحزن التي كانت على وجهها تتحول لضحكات وابتسامات وبدأت دموع الفرح تهرب من عينيها والكلام يتلعثم على لسانها، وقالت: إيه دا؟ طب ازاي.. انت انت بتهزر عشان تضحكني بعد اللي انت قلته، صح؟

- لا والله، هو دا اللي حصل فعلا.
- يعني بجد هنتجوز؟ يعني خلاص هتبقى ليا لوحدي! هشوفك كل يوم وهنعيش مع بعض في بيت واحد وهنحكي حكايتنا للناس كلها وخلاص قصتنا هتظهر للنور؟
- خلاص يا حبيبتي كل اللي احنا حلمنا بيه من واحنا لسا صغيرين هيتحقق، وهنعوض كل الوحش اللي مرينا بيه وهنعيش في أمان وهعملك كل حاجه عشان اشوف ضحكتك الحلوة دي.
- عارف يا حبيبي.. انت كل حاجه بتمناها من الدنيا دي كلها مش عايزه حاجه غيرك انت.
- وانتي نور حياتي من الأساس، لما بتضحكي لي بشوف الدنيا تضحك لي ولما بتبقى غايبه عني بشوف كل حاجه

من غير ملامح وكل حاجه من غيرك ملهاش طعم.. لما بشوف الدنيا وانتي جنبي بيبقى ليها طعم تاني بحس بحلاوة الدنيا وانا شايفها بعينيكي.

- انا بطمن وانا معاك، بحس انك شبه بابا الله يرحمه انا اه معشتش معاه كتير لانه مات وانا صغيرة لكن فاكره نظراته ليا وهو بينصحني وهو خايف عليا بشوف نظراته دي فيك اوي.
- انتي بتأكدي لي يوم بعد يوم ان انا قدرت احافظ عليكي وعلي حبنا كل السنين دي، ومعني انك بتشبهيني بوالدك الله يرحمه يبقي انا كدا نجحت ونجحت اوي كمان.
- ايوه لازم تنجح طبعًا، ياريتهم كلهم زيك..

قلت ضاحكًا: لا لا مش للدرجه دي يعني! انا مش خارق انا واحد عادي وأقل من العادي كمان بيحب حبيبته ونفذ وعده ليها وخلاص ناقص حاجه بسيطه وهيتجوزها.

- مش كفايه بقى تقليل من نفسك؟ انت مش واحد عادي خالص!! انت شخص مميز.
- مش يمكن ابقى مميز بالنسبالك لوحدك وللناس القريبه مني لكن في العموم شخص عادي!
- وانت عايز ايه تاني! مش كفايه انك مميز بالنسبالي انا؟

- لا دا كدا حلو أوي.. أنا ميهمنيش رأي حد فيا كفايه أوي انك تبقي راضية عني ومعايا.
- مممم والرواية بتاعتك اللي انت كنت بطلت تكتبها عشان «**الفصل الأخير**» مش عارف تجمع أحداثه في دماغك!!
- أيوه يا حبيبتي بس أخيرًا الرواية بتاعتنا هتكمل، وكل اللي أنا وانتي مرينا بيه هوثقه في «**الفصل الأخير**» منها وهتبقي انتي البطلة بتاعتها.
- بطلة! بطلة إيه انت لسه مصمم على موضوع البطلة دا؟
- طبعًا ومين يستاهل دور البطلة غيرك! أنا الرواية بتاعتي حقيقة يبقي لازم تكون البطله بتاعتها من الواقع؛ عشان اللي هيقرأ يقدر يتخيل كل اللي عيشناه سوا ويتخيل نفسه مكانّا.
- نفسي كل الناس يعيشوا حاله زي اللي أنا فيها معاك.
- قلبك الطيب والحنيه اللي فيكي دي بتخليني أحبك كل يوم حب فوق حبي ليكي، بيخليني أتمسك بيكي أكتر وأكتر.

ملست بيدها على شعري وهي تنظر في عيني وابتسامتها ترسم جمالها على وجهها، وبمجرد لمستها شعرت أنني في عالم

آخر وكأنني أحلق في السماء وقدماي لا تلامس الأرض وكسرت كل قوانين الجاذبية! كان إحساسًا لا نشعر به إلا كل وقتٍ بعيد..

- أنا أول مره أحس بالسعاده اللي أنا فيها دلوقتي دي! انتي ازاي كدا؟ وخلتيني مبسوط كدا ازاي!
- السعاده اللي انت فيها دي مش أنا السبب فيها! انت السبب فيها، أفعالك معايا وكلامك ليا بيخلوني طايره من الفرح وعايز أفرحك بأي شكل ممكن.
- طب ربنا يقدرني وأقدر أفرحك أكتر وأكتر وميجيش اليوم اللي تندمي فيه على حبك ليا.

قالت ضاحكة: أندم؟ أنا عمري ما اندم عليك انت بالذات، دا انت خلاص بقيت الترمومتر بتاع مزاجي تزعل بزعل تفرح بفرح.. حالتي متوقفة عليك انت وعلى مزاجك.

وفي هذه اللحظة تدخل صاحب المركب وقال: الوقت اللي انت مأجره خلص يا أستاذ، تحب تأجر وقت كمان وهعمل معاك واجب المرة دي..

ردت هي وقالت: شكرًا الوقت اتأخر، مرة تانية بقى.

- ايه دا داحنا اتأخرنا فعلًا وزمان مامتك قلقانه عليكي دلوقتي، يا رب بقى منلاقيش زحمة في المواصلات عشان نوصل بسرعة.

خرجنا من المركب ومشينا نستكمل ما كنا نقوله حتى محطة المترو التي كانت غير مزدحمة بالمره وركبنا ووصلنا إلى أقرب المحطات لنا وخرجنا منها وكان موقف السيارات به سيارة وحيدة وينقصها كرسيان فقط وكأنها تنتظرنا، تحركت السيارة من أمام المترو ونحن نضع السماعات وفيروز بصوتها الجذاب تطربنا وهي تقول: «**شايف البحر شو كبير كِبر البحر بحبك، شايف السما شو بعيد بِعد السما بحبك**» كنا نسمعها ونحن نسند رأسنا إلى رأس بعض وكالعادة يأخذنا النوم إلى أن وصلنا لبلدتنا.

تركنا السيارة ومشيت هي أمامي ولحقتها حتى وصلنا إلى منزلها الذي كان لا يبعد عن منزلي كثيرًا والتفتت بوجهها كالمعتاد وابتسمت وهي تشير لي بيدها قبل صعودها درجات المنزل فابتسمت لها من بعيد وذهبت أنا الآخر في طريقي للمنزل، لكن سمعت صوت نجاة الصغيرة تقول «**القريب منك بعيد**» فتوقفت لأعرف مصدر الصوت حتى عرفت أنه من المقهى التي بجانب منزلي فنظرت للساعة في هاتفي وكانت قد وصلت للحادية عشر ونصف فقررت أن أجلس النصف ساعة الأخرى على هذه المقهى؛ لأستمع لعظمة أغاني الزمن الجميل مع العواجيز الممسكين «بالشيشة» وهم يستمعون مثلي تمامًا ويحركون رأسهم ويغنون مع الأغنية وهم يلعبون «**الطاولة**» ـ وهي اللعبة المفضلة لحبيبتي والتي كنت أريد تعلمها ـ فجلست بجوارهم لأسمعهم وهم يلعبون ويغنون ولأتعلم منهم أيضًا، طلبت من أحد

العامليين كوب من الشاي وشيشة مثل المتواجديين واستمر الحال لساعة ونصف ليس نصف ساعة فقط كما كنت أريد من شدة إعجابي بجمال الحالة التي أشعر بها في هذه المقهى القديمة بكل التفاصيل الموجودة، لكن وجدت أمي تتصل على هاتفي لتطلب مني أن أعود للبيت لأن الوقت قد تأخر وهي تريد الاطمئنان على أحوالي قبل أن تنام. وبالفعل تركت المقهى وذهبت إلى منزلي وكانت أمي تنتظرني، وقالت ضاحكةً: حمد لله على السلامة، كل دا مع أصحابك بردو؟

شعرت من طريقتها أنها قد عرفت أنني كنت مع «**ليلى**» وليس أصدقائي كما قلت لها قبل النزول، قلت ضاحكا: الله! مانتي فاهمة أهو انا كنت مع مين، لازم تحرجيني يعني.

- مانت اللي مقولتش من الأول، من إمتى وانت بتخبي عليا وانت خارج معاها.
- وانتي حد بيعرف يخبي عنك حاجه بردو!! دايمًا قفشاني كدا.
- كلت حاجه بره ولا أحضر لك العشا؟
- نامي انتي أنا هاكل أي حاجة خفيفة وأكلمها شوية وأنام.
- ماشي بس هتحكي لي بكره عملتوا إيه مش هتهرب مني زي كل مرة.

ضحكت وقلت لها: لا هحكيلك هحكيلك، يلا انتي بقى عشان سهرتي كدا.. تصبحي على خير.

ـ وانت من أهله، واتجهت لغرفتها.

دخلت إلى غرفتي لأرتدي ملابس البيت ووجدت صديقي القط نائمًا على سريري وعندما وضعت قميصي على السرير شعر بوجودي واستفاق من نومه ونظر لي وجلس في مكانه، وعند دخولي للمطبخ لتجهيز العشاء جاء خلفي وقفز إلى الطاولة التي توجد في المطبخ وجلس فوقها ليسليني حتى انتهيت من كل شيء ووضعت له طعامه قبل أن أتناول عشائي.

انتهيت من كل شيء وغسلت يدي ودخلت إلى صالة البيت فوجدتها اتصلت على هاتفي خمس مرات، فاتصلت بها أنا..

ـ ألو، لو سمحت الرقم دا اتصل بيا ٥ مرات ممكن أعرف مين؟

ـ أنا معجبه.

ـ طب مش هنتعرف بيكي يا معجبة؟

ـ أنا ليلى ومعاك في نفس الشارع واعرفك من إعدادي وبيقولوا انك بتحبني من إعدادي تقريبًا!

ـ مين دا؟ أنا؟ لا الحقيقة أنا معرفكيش عشان أحبك.

ـ لا والله!! طب ما نتعرف.

ـ معلش والله مينفعش أنا مرتبط وبحب حبيبتي.

- مممممم لا بتعرف تصد كويس بس يا ريت تكون بتعمل كدا فعلًا.
- على أساس إن المعجبين كتير وكدا؟
- أيوه كتير ، انت بتضحك عليا يعني بكلمتين! لا أنا عارفه كل حاجه بقى على فكره.
- وحشتيني.
- إحم إيه دا فيه إيه؟ ما احنا كنا لسا مع بعض من ٣ ساعات بس.
- كتير عليا الساعتين ونص دول.. بس خلاص هانت ونبقى مع بعض على طول.
- يا رب بس متزهقش مني بعد كدا وتبص بره.
- منا زهقت من دلوقتي أهو أنا لسا هستنى بعد كدا!!
- كمان؟ دا واضح إن في حد هيموت النهارده.
- استنى يموت إيه بس، نتجوز الأول ونشوف الموضوع دا بعد كدا.
- ثبتني أوي، مانت مش بتعمل حاجه غير إنك بتثبتني.
- طب عشان نكون على نور كدا من الأول، انا هتجوزك وهتجوز بعد كدا اتنين كمان.
- لا وتتجوزني ليه بقى يا حبيبي ما كفايه عليك الاتنين.

- ما هو انتي هتبقي ست البيت وهما موجودين عشان يريحوكي بس.
- أيوه كلام الأفلام والمسلسلات اهو بقى، لا يا حبيبي أنا لوحدي اللي هتجوزك ولو فكرت بس مجرد التفكير في الحاجات دي هموتك وانت عارف اني مجنونه واعملها.
- طب واهون عليكي؟
- مممممم مانت اللي عايز تخوني بقى.
- يا حبيبتي اخونك ازاي بس؟ أنا عيني مابتشوفش حد غيرك والله، انتي مش عارفه إن أنا بهزر.
- خلاص هعديهالك المرة دي.
- اتبسطي بخروجة النهارده بقى ولا؟
- طول ما انا معاك أنا مبسوطه حتى لو قاعديين في الشارع مش مهم.. المهم إنك جنبي.
- طب عشان الكلام الحلو اللي بتقوليه من الصبح دا بقى.. هقولك على مفاجأة حلوه.
- مفاجأة إيه؟
- أنا هكلم ماما عشان تيجي عندكم تفتح كلام رسمي وكدا وبعدها هاجي أنا وبابا وعمي ونتفق ونقرأ الفاتحة ونحدد ميعاد الفرح وكل حاجه.
- انت بتتكلم بجد فعلًا ولا بتهزر كالعادة؟

- والله فعلًا بتكلم بجد هقول لماما تيجي عندكم يوم الجمعة الجايه دي كمان مش هنستنى تاني.
- طب، طب استنى عشان...
- لا مش هستني عشان أي حاجه خلاص هو دا آخر كلام وهتيجي الجمعة يعني هتيجي الجمعة.
- أنا مش مصدقه نفسي! يعني ناقص يومين بس ونبدأ كل حاجة تبقى رسمي فعلًا!!! طب أنا كدا مش هلحق أظبط البيت واروح الكوافير واعمل حاجات كتير ورايا، استنى الأسبوع الجاي.
- يا حبيبتي كوافير إيه وحاجات كتير إيه! انتي زي القمر من غير حاجه خالص، وبعدين دي ماما بس اللي جايه يعني مش لازم كل اللي هتعمليه دا، متتعبيش نفسك!!
- لا مينفعش دي أول مره تيجي عندنا يعني لازم أكون حلوه كدا ومجهزه نفسي لكل حاجه.
- مفيش فايده، هتفضلي طول عمرك عنيده.
- سيبني بقى أنا فرحانه دلوقتي وطايره من الفرحه كمان.
- حقك تفرحي مانتي العروسه ومين قدك دلوقتي.
- طب يلا عشان ننام يا عريس بقى عشان ورايا حاجات كتير يا دوب الحق أعملها اليومين دول.
- هههههههه ماشي يا حبيبتي يلا تصبحي على خير.

ـ وانت من أهله يا حبيبي.

انتهت مكالمتنا وذهبت إلى غرفتي أمسكت بكتابٍ كنت أقرأه واستكملت قرائتي لحوالي نصف ساعة وغلبني النومٍ فتركته على المكتب وأخذت صديقي بين ذراعي وذهبنا إلى سريري ووضعته جانبي وملستُ على رقبته حتى أغمض عينه وأغمضت عيني أنا الآخر وذهبنا في نومٍ عميق..

استيقظت في ظهر اليومٍ التالي وأمي تدعوني للإفطار وكنت على غير عادتي مؤخرًا وكان عندي استعداد لتناول الطعام بكل راحة وسعادة، وكيف أكون حزينًا أو ممتنعًا من الطعام وملذات الحياة بعد أن عادت ليّ من جديد؟

قالت أمي: بقالك كتير مابتفطرش معانا ونفسك مفتوحة ومبسوط كدا! شكل الخروجه امبارح مع أصحابك كانت حلوه وفتحت نفسك أوي.

فهمت ما تلمح له وقلت ضاحكًا: آه والله دا أصحابي امبارح خلوني ضحكت واتبسطت أوي.

تدخل أبي في الحوار وقال: أصحابك اااه، كنت معاها امبارح وانت وماما بتتكلموا كأني مش فاهم يعني؟ لا دا انا اللي مربيك وعارف كل حاجه.

قلت له: طب ماما مش المفروض تروح يوم الجمعة تفتح كلام معاهم وكدا؟ أنا اتفقت معاها إن خلاص ماما رايحلهم وقلت لها تعمل حسابها وتقول لمامتها.

قال: متستعجلش يا عريس أوي كدا.

قالت أمي: لا سيبه يفرح هو هيتجوز اللي بيحبها كل يوم يعني؟ هي فرحة العمر ربنا يسعده.

قلت لأبي: شفت ماما فاهماني ازاي! وآه أنا مستعجل بصراحة ومش قادر استنى تاني.

قال: طب خلاص ولا تزعل نفسك، أعتبر ماما هتروح الجمعة الجاية زي ما انت اتفقت مع ليلى.

قمت من مكاني وقبلت رأسه ورأس أمي وأنا في غاية السرور.. ولكني ولا أعلم ما أنا فيه الآن حلم أم حقيقة؟ هل من الطبيعي أن يتبدل الحال في يومين؟! هل الحادثة التي كانت على وشك أن تودي بحياتي إلى الهلاك أصبحت سبب النعيم والسعادة التي أعيش بها الآن!! هل يعقل هذا أن كل ما حلمت به يتحقق في فترة قصيرة جدًا وبسرعةٍ أبدًا ما كنت أتوقعها حتى في أشد الحالات التي كان يتملكني فيها الشعور بالأمل والتفاؤل؟ أم ما أنا فيه الآن مكافأة من الله على صبري وتحملي كل هذه الفترة الطويلة لـ الآلام والعذاب وقلة النوم والتعب النفسي والجسدي الذي كان كالحمل فوق رأسي حتى كاد أن يحني ظهري من شدته؟

كنت في وقتها لا أعرف إجابات كل هذه التساؤلات التي كنت أريد بأي شكل معرفتها ليرتاح عقلي من التفكير، فأنا من النوع الذي يبحث خلف كل شيء حتى ولو كانت نهايته غير مرغوب فيها..

مرَّ يومي الأربعاء والخميس وها نحن الآن في ليلة الجمعة فاتصلت بحبيبتي لأطمئن على كل شيء وعلى ما أعددته لمقابلة أمي في اليوم التالي..

- ألو، عاملة إيه يا عروستنا؟
- الحمد لله يا عريسنا.
- هههههههه صوتك بيقول إنك تعبتي أوي اليومين دول.
- يا حبيبي هو انا لو مش هتعب عشان يوم زي دا هتعب امتى؟
- لا يا حبيبتي أنا مش عايزك تتعبي خالص، أنا هتجوزك عشان ترتاحي من التعب مش عشان تتعبي نفسك أكتر! مش عايز اسمع صوتك بالتعب دا تاني وإلا...
- هاه وإلا إيه كمل!
- وإلا هتجوزك بردو عادي جدًا.
- أيوه كدا أنا بحسب بس.
- لا مش هرجع في كلامي ماتقلقيش.. أنا مش فاهم هفضل لحد امتى برمي نفسي عليكي كدا؟
- هههههههه على أساس إن أنا بتقل عليك وبقولك خلينا اصحاب؟ ما أنا زيك يا حبيبي.
- عارفه أحلى حاجه في علاقتنا دي إيه؟
- إيه يا فيلسوف؟

- التفاهم.. احنا تقريبًا متفاهميين في كل حاجة! يعني انتي قبل ما تقولي الحاجه بحس باللي هتقوليه وببقى مجهز الرد عليكي، هقولك يعني عارفه أنا لو اديتك الرواية تكتبي الفصل الأخير وتكمليه انتي بأسلوبك أنا متأكد إنك هتكمليه زي ما في دماغي بالظبط.. ومش بس الرواية! لا دا كل حاجه يعني فاكره انا وانتي قولنا كام مرة نفس الكلام مع بعض في صوت واحد؟ أنا شايف إن التفاهم دا عامل حالة عظيمة بينا مخلينا قريبيين من بعض أكتر وأكتر.
- طب أكد لك كلامك بقى؟ والله قبل ما تنطق كلمة التفاهم دي أنا كنت هقولهالك..
- شوفتي بقى! مش بقولك التفاهم بينا دي بيخلي العلاقة أحلى وأحلى، يلا احكي لي عملتي إيه؟
- بص يا سيدي يوم الأربع عملت الشقه كلها وجهزتها وخدت مني اليوم كله بس نزلت عشان أجيب بقى الأكل اللي مامتك بتحبه عشان ماما قالت لازم طنط تتغدا عندنا.
- إيه دا وعرفتي منين بقى الأكل اللي ماما بتحبه؟
- مانت قولت لي من زمان! انت فاكرني بنسى زيك؟
- أيوه صح.. هاه والنهارده عملتي ايه؟

- نزلت عملت شعري واشتريت لبس جديد عشان أعجب طنط.
- هههههههههه يا حبيبتي انتي عاجبه طنط من غير كل اللي عملتيه دا! دي تقريبًا خلاص اعتبرتك انتي اللي بنتها وانا واحد عادي عايش معاهم في البيت.
- أيوه مانت واحد عايش معاهم في البيت شويه وهتبقى بتاعي أنا لوحدي بعد كدا، انت فاهم؟
- خلي بالك كدا ماما هتغير عليا منك.
- لا دي حبيبتي أنا وهي هنتفق عليك أصلًا يعني.
- كمان؟ دا واضح إن انا هيتعمل عليا مؤامرت كتير في الجوازه دي.
- أيوه بالظبط، ويلا اتفضل نام بقى عشان انام أنا كمان واقوم أحضر الأكل مع ماما من بدري.
- إيه دا انتي هتعملي أكل لماما؟ لا دا انا شكلي هقعد ماما في البيت وهاجي انا.
- هههههههههه بكره تزهق من أكلي وتجيب أكل من بره يا حبيبي.
- لا لا متقوليش كدا، أنا أصلًا هفضل قاعد في البيت عشان أكل من إيديك وارخم عليكي كدا.

- احم طب خلاص بقى تصبح على خير انت خدت أكتر من وقتك.
- واضح إن انتي اللي هترخمي عليا.. تصبحي على خير يا حبيبتي.
- هههههههه وانت من أهله يا حبيبي.

انتهت مكالمتنا وذهبت إلى غرفتي وجلست على المكتب وأثناء ما أنا أبحث عن الكتاب الذي كنت اقرأه قبل نومي، وقعت عيني على روايتي الذي بدأتها من فترة كبيرة وكنت توقفت عن الكتابة فيها وجاء في بالي فكرة أن أنهيها وأطبعها وأقدمها لحبيبتي في أول يوم لنا في بيتنا على سبيل المفاجأة وأنا على إدراك تام بأن هذه الرواية سيكون لها طابع خاص على قلبها عند رؤيتها ورؤية اسمها كبطلة للرواية، وبدأت بكتابة أولي صفحات الفصل الآخير..

كتبت صفحة والثانية فالثالثة وغلبني النوم فوضعت قلمي في المكان التي توقفت عنده وأغلقت الكشكول وصعدت إلى السرير بصحبة صديقي ونمنا، واستتيقظت هذه المره في الصباح كانت تقريبًا التاسعه صباحًا وهذا على غير عادتي! وقررت أن أستغل هذا الوقت في استكمال الكتاب الذي لم أكمله ليلة أمس لانشغالي بالرواية التي أكتبها.

وبعد مرور حوالي ثلاث ساعات كانت أمي قد أعدت الإفطار فذهبت أنا وحملته ووضعته على السفرة بنفسي والسعادة

تغمرني فاليوم سوف يكون بداية تحقيق ما أنتظره منذ زمنٍ، وبدأت نظرات الضحك والسعادة تملأ المكان ورائحة الفرح تعطر المكان، وكعادة أبي لا يترك فرصة للمداعبة أو موقفًا ما يحدث منيّ أمامه ليبدأ بمداعبتي..

فقال: إيه يا محمد النشاط اللي انت فيه دا على الصبح؟ لا متعودناش على كدا في آخر أيامك معانا لاحسن نجيبك من شقتك كل يوم تشيل الفطار وتحضره لنا على السفرة كدا.

قالت أمي: أيوه ما هو عريس النهارده بقى.

قلت: حتى انتي يا ماما؟ ماشي ماشي.. أنا غلطان يعني اني عايز آشيل عنك شويه يااه مكنش العشم يا أم محمد لا.

ضحكت وقالت: تشيل عني شويه إيه؟ انت عشان مبسوط بس اني رايحة لعروستك النهارده.

قلت: ايه دا يا ماما مالك متوصيه بيا النهارده كدا ليه؟

قال أبي: لازم تتوصي بيك يا عريس دا انت العريس حتى.

ضحكت وقلت: ماشي ماشي عارف إنك فرحان فيا.

ضحك وقال: مش انت مستعجل يا حبيبي على الجواز أوي!! استحمل بقى.

قلت لأمي ضاحكًا: الله الله! ما تشوفي قصده إيه بالكلمة دي، شكله كدا يقصدك والله أعلم.

نظرت أمي لأبي وقالت: آه صحيح قصدك إيه بالكلمة دي؟ شكلك انت وابنك هتناموا برا النهارده.

ضحكت أنا كثيرًا وأنا أنظر لأبي وكأنني انتصرت عليه في معركة مثلًا.

فقال لأمي: كدا؟ كدا بتشمتي الواد فينا! ماشي متشكرين.

وانتهى حوارنا المعتاد الذي دائمًا ما يملأه الضحك وخصوصًا في هذه الفترة بعد حديث بيننا حول زيارتها لبيت حبيبتي وكانت تتجاوب معي في كل شيء كنت أقوله لها..

مر الوقت ببطء شديد حتى وصلت الساعة السادسة مساءً وهو الوقت الذي حددنا فيه ميعاد زيارة أمي وأعدت أمي نفسها للزيارة جيدًا وقبل أن تفتح الباب لتذهب، قلت لها: يا ماما والنبي وافقي على أي حاجه وعايزك تحكي لي كل حاجة حصلت هناك، وخلي بالك من طنط سلمى مامت ليلى يعني خليكي صريحة معاها وقولي لها كل حاجه عني وأي طلبات عايزنها أنا مستعد وجاهز ليها..

ضحكت وقالت: يا واد مترميش نفسك كدا ومتخافش انا عارفه انت عايز إيه وهعملك كل اللي انت عايزه، فاهمه إنك بتحب وواقع على الآخر.

قال أبي ضاحكًا: صدقت أم كلثوم لما قالت «**أهل الحب صحيح مساكين**» يا مسكين انت.

ضحكت أمي وغادرت المنزل متجهةً إلى منزل حبيبتي، وأنا دخلت إلى غرفتي واتصلت بـ ليلى في الحال لأبلغها بأن أمي قد غادرت المنزل وهي الآن ذاهبة إليها.

كنت أجلس وأنا أنتظر أمي تأتي من هُناك وأنا مثل طالب الثانوية العامة الذي كان يذاكر طوال العام وأجاد الحل في الامتحانات وينتظر النتيجة التي سوف تحدد مصيره..

مرت ثلاث ساعات وسمعت جرس الباب فانتفضت من مكاني على أمل عودة أمي بالأخبار السارة التي سوف تجعلني لن أنام الليل من فرحتي، ولكن حدثت نقطة التحول عندما فتحت الباب ووجدت.. وجدت خالد! نعم نعم خالد صديقي الذي من المفترض أنه مات منذ أكثر من عام..

مد يده ليصافحني وهو يقول: مبروك يا أطيب صاحب في الدنيا.

وكانت هذه الكلمات هي الأخيره قبل أن أشعر بالدوار والصداع الشديد وأشعر بجسدي يُلقى على الأرض ويمر أمامي كل شيء حدث بدايةً من زيارة حبيبتي ووالدتها في المستشفى وكل حديثنا الذي مر في الفترة السابقة ومرورًا بلقائنا ودخولنا للسينما والرحلة النيلية وحديث أمي وأبي معي نهايةً بجرس الباب ومنظر خالد صديقي وهو يقف يبتسم ويمد يده ليصافحني..

عاد المشهد من جديد نفس السرير نفس الممرضه التي تبدل المحلول نفس الغرفة نفس كل شيء سبق ورأيته، وبدأت

أفتح عيني وأغلقها مرات متتالية وأرى أمي وأبي برؤية ضبابية جدًا لم يلحظها سوى الممرضة التي كانت تبدل المحلول وقتها، قالت: يا جماعه بدأ يفوق ويفتح عينيه اهو الحمد لله شكله فاق من الغيبوبة!!

كانت كلمة «**غيبوبة**» تنزل مثل الصاعقه على قلبي وأنا أحاول استيعاب الأمر وأقول لنفسي:.

«**يعني إيه؟ يعني إيه غيبوبه؟ طب و... طب واللي انا عيشته وشوفته دا كله يبقى إيه؟ كان حلم؟ كان تهيؤات؟ كل التفاصيل اللي شوفتها وعيشتها دي كانت ايه؟ كانت وهم! طب والفرحة اللي أنا كنت فيها! كانت من خيالي! أنا بس اللي عيشت كل دا وشوفت كل دا؟ طب ازاي! دا أنا اتكلمت مع.. مع بابا وماما وحبيبتي ومامتها والدكتور طاهر والسواق والناس في السنيما و... وخالد.. خالد!!**».

قلت هذه الكلمات في نفسي بعد أن أدركت أن كل الأحداث التي عيشتها كانت مجرد هلاوس وتهيؤات من آثار الغيبوبة ولم يطل الوقت الذي استفقت فيه حتى عدت مرة أخرى للغيبوبة من جديد وكان آخر مشهد رأيته وأنا أحاول فتح عيني أمي وأبي وهما يمسكان بالمصاحف ويقرآن فيها وأعينهما تفيض من الدموع..

نعم عدت للغيبوبة من جديد لكن هذه المرة لم أرَ حبيبتي ولم أرَ أي شيء مما قد رأيته في المرة السابقة؛ لأنني رأيت الفتاة التي كانت تشبه حبيبتي في مشهد مختلف تمامًا وخارج حدود

الغرفة والمستشفى بالمرة، حيث أننا كنا نجلس على مقاعد حديقة وكان من حولنا الناس وأتذكر حديثي معها جيدًا.. أتذكره وكأنه حدث منذ دقائق.

- انتي مقولتليش انتي مين لحد دلوقتي وجيتي ورايا اسكندرية ازاي وعرفتي مكان الشقه بتاعتنا هناك من مين و....
- أنا عارفاك من زمان واعرف عنك كل حاجه بس ممكن تكون انت مكنتش بتاخد بالك مني.
- من زمان! ازاي عارفاني من زمان؟
- مش يمكن ساكنه على مسافه قريبه منك؟ أو مثلًا أنا دفعتك؟
- مممممم كملي.
- أنا عايزه أقولك بس اني بحبك من زمان؛ من زمان أوي وكنت بستناك تعدي من تحت بيتنا انت وصحابك عشان أخرج وابص عليك من ورا الشباك كل يوم في نفس الميعاد.
- وكنتي عارفه مواعيدي كمان؟ غريبة الحاجات دي محدش يعرفها غير شخص واحد بس!
- أنا عارفه الشخص اللي انت تقصده وعارفه انت بتحبه أد إيه..

- عارفه!! طب مين؟
- ليلى.. ليلى اللي انت وهي بتحبوا بعض من وانتوا صغيريين وعيشتوا مع بعض أجمل قصة حب يتمناها أي اتنين وكنتوا معروفيين في المدرسة كلها من زمان إن انتوا لبعض بس الظروف والقدر كانوا أقوى منكم انتوا الاتنين ومكملتوش..

بدأت دموعي تسيل على وجهي دون إحساس فوجدتها تنظر إلى عيني بكل شفقة ووجهها تحول إلى وجهٍ حزين ونظرت إلى الأرض، وقالت: أنا آسفة مش قصدي أجرحك.

أخرجت منديلًا ومسحت دموعي وقلت لها: لا مفيش حاجة عادي، بس بردو انتي مردتيش على كل كلامي.. ازاي عرفتي كل الحاجات دي؟

- أنا صاحبة ليلى الوحيدة التي كانت بتحكي لها كل حاجه عنك بتحب إيه وتكره إيه، بتروح فين لما تكون زعلان من الناس كلها، مين أصحابك، مين أهلك، كل حاجه..
- لكن ليلى مكنش ليها صحاب!! أنا كنت كل حاجه كنت حبيبها وصحبتها وأخوها وأبوها.. ولما سألتها قبل كدا ليه ملهاش صحاب، قالت إن أنا كفايه عليها وان نفسها هي صاحبتها..
- يبقى هي كانت مخبية عليك إن أنا كمان صحبتها.

- مستحيل!! مكنتش بتخبي عني حاجة..
- طب سيبني أكمل كلامي، أنا جيت وراك اسكندريه عشان عرفت انك متضايق وزعلان بس مكنش عندي الجرأة إني آجي واكلمك، بس كنت براقبك واشوفك فين عشان تاخد بالك مني ولما شوفتني أول مرة عند شقتك وضحكت لك وانت كنت مذهول وقتها توقعت انك هتنزل واستنيتك وقلت هعترف لك بكل حاجة بس في آخر ثانية رجعت في كلامي ومشيت، واتكرر الموقف كذا مرة وفي كل مرة كنت برجع في كلامي على آخر لحظه وبمشي عشان ممكن تحرجني.
- طب وحكاية الشبه دي إيه؟ دا انتي كمان كنتي لابسه نفس الفستان الأزرق بتاعها اللي كنت بحبه!!
- ما هو حكاية الشبه دي هي اللي قربتني أنا وليلى من بعض لما عرفنا الموضوع دا وكنا كمان لما بتنزل تجيب حاجة جديدة كنت ببقى عارفه إنك انت اللي بتقولها على الألوان اللي بتحبها عشان تشتريها، فأنا كنت بجيب زيها في حاجات كتير..
- طب ازاي إنتي تبقي عارفة إني كنت مرتبط بصحبتك وبحبها الحب دا كله وجايه تحبيني انتي كمان؟ مش كدا خيانة لصحبتك اللي أمنتك دونًا عن الناس كلها على سرها!

- أنا بحبك من قبل ما تحب ليلى وكنت شيفاك ليا من زمان ولما لقيتك انت وليلى مبسوطين مع بعض قررت ابقى زي ما بنقول صندوق الأسرار بتاعكم وكفايه أشوفك مبسوط ..
- بس مفيش حد بيعمل كل اللي بتعمليه دا!!
- أنا عملت كل دا عشان بحبك ونفسي تحس بالحب دا.
- بس أنا لسا...
- لسا بتحبها؟ ما هي خلاص مشيت وسابتك!!
- مش بمزاجها!!
- مش مهم، المهم إنها مشيت.. دي مشيت وهي عارفه إن روحك كانت متعلقة فيها!
- ولسا روحي متعلقة فيها ولسا هي حضن الأمان ليا.. مش عارف أفهمك ازاي! هو لو مثلًا واحد مامته ماتت ينفع يدور على أم تانية يعيش معاها حتى لو بعد مرور وقت كبير على موت أمه دي؟ هل هيقدر يعيش معاها ويحكي لها ويشكي لها من هموم الدنيا زي أمه مثلًا؟
- إنت معاك حق في كل دا، بس انت أكيد مش هتعيش عمرك كله من غير بنت في حياتك! مش هتوقف حياتك عليها.. انت لسا شاب والعمر قدامك وفي ناس كتير هيناسبوك ويناسبوا تفكيرك وهيقدروا يتعايشوا معاك زيها..

- هكون واقعي معاكي وهقولك إن اللي قولتيه دا صح، بس هي.. هي مفيش زيها مفيش حد هيقدر يحس بيا ولا يريحني غيرها مفيش حد هيقدر ينسيني الوجع وكل مشاكل الدنيا بضحكة ونظرة ليا غيرها، مفيش حد هيبقى فاهمني من غير ما اتكلم ولا أنطق بحرف غيرها مفيش حد هقدر أعيش معاه وأقول له الكلام اللي كنت بقوله ليها! عارفة أنا لو عملت كدا؟ أبقى محبتهاش وابقى خاين وانا عمري ما كنت خاين.. بصي أنا وعدتها من زمان إن أنا لو مش ليها مستحيل أبقى لغيرها وأنا لسا عند وعدي ليها وعمري ما هخون..
- هي كانت ملاك يعني؟ أكيد جت في مرة زعلتك، أكيد في مرة هددتك تنهي علاقتكم لو معملتش حاجة معينة طلبتها منك!
- مفيش إنسان معصوم من الأخطاء هي عملت كدا بس أنا عشان كنت متمسك بيها لدرجة انتي مش قادرة تفهميها لأنك لو فاهمة وحاسة بكل دا مكنتيش جيتي دلوقتي وقولتي لي إنك بتحبيني وعايزاني وكل الكلام اللي انتي قولتيه دا.. أنا كنت بحب إحساس إني ضعيف معاها وضعيف قدام حبها كان ممكن أي حاجة تهون في سبيل حبي ليها، عمرك شوفتي حد بيحب يبقى ضعيف؟ أنا

كنت بحب كدا لأني عارف إنها مستحيل تستغل إنها نقطة ضعفي وتأذيني.

- محمد.. الحياة عمرها ما وقفت على اللي راحوا!
- مش معنى إنها بعيدة عني ومش قادر أوصل لها يبقى راحت خلاص ونسيتها! على فكرة هي لسا بتحس بيا وقريبة مني ولما بتعب بتجي لي وتهون عليا بردو.
- يعني يا محمد مش هتقدر تحس بيا وتفهم أنا أد إيه بحبك وتدي لنفسك فرصة تعيش معايا فترة صغيرة بس يمكن تغير رأيك!
- أنا نفسي تقدري اللي أنا فيه وتحسي إن أنا لو مش ليها فأنا مش لأي واحدة تانية..

في هذه اللحظة تغيير صوت الفتاه وتحول إلى صوت حبيبتي بطريقة غير مفهومة وقالت:

«أنا طول عمري كنت براهن على حبك ليا وعارفة انك عمرك ما هتخون وعدك مهما حصل، بس مكنتش أعرف إنك جواك الحب دا كله واللهفة دي كلها على غيابي.. أنا آسفة، آسفة إني خليتك تحبني للدرجة دي وإني مشيت وسيبتك ومقدرتش أكمل وعدي زي مانت لسا بتكمل في وعدك وعايش على الأمل.. أنا آسفة بس القدر أكبر مني ومنك وكل حاجه أنا عارفه إني كنت عمري ما هقابل حد بيحبني زيك مهما أنا لفيت الدنيا كلها وقابلت ناس.. أنا آسفة».

الفصل الرابع

صدمة النهاية

«لو دققت النظر في أصغر التفاصيل مثل العلامات، لكنت أدركت أحداث هذه النهاية منذ البداية..».

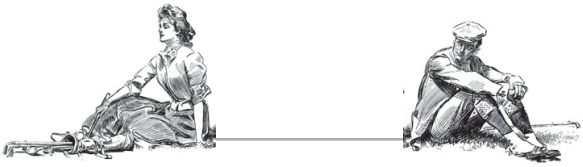

كان صوتها آخر صوت أسمعه قبل أن يتبدل المشهد من جديد وأفتح عيني لأرى نفسي في نفس الغرفة ومن حولي أكثر من طبيب ينظرون إلى عيني وهم يرفعون جهاز التنفس الإصطناعي من فوق أنفي ويقول أحدهم: حمد لله على السلامة يا بطل.

قلت بصوتٍ خافت جدًا: هو إيه اللي حصل، أنا فين؟

- مفيش حاجة انت كويس وفي المستشفى ولما تشد حيلك كدا معانا هنفهمك كل حاجة.
- طب أنا هخرج امتى؟
- كام يوم كدا ولو التزمت بمواعيد العلاج وحسيتك كويس هتخرج.
- ماما وبابا و.. وليلى هنا؟
- آه بابا وماما هنا بس ليلى مش هنا وهدخلهم يطمنوا عليك ٥ دقايق كدا ويخرجوا تاني عشان متبذلش مجهود يتعبك احنا ما صدقنا إنك فوقت من الغيبوبة الطويلة دي.

أنهى حديثه معي ويبدو أنه كان يجهل من هي «**ليلى**» وأخذ الطاقم الذي كان يقف معه وغادروا الغرفه وبعدها بثوانٍ دخلت أمي وهي ما زلت ممسكة بالمصحف في يدها وما زال الدمع على خديها ومن خلفها أبي الذي رأيته يبكي ويبتسم في آنٍ واحد عندما رأى عيني مفتوحة وأنظرُ إليه، وكانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها أبي يبكي!! اقتربوا من السرير الذي أنا بجانبه ووجدت أمي تقبل رأسي وتحمد الله أنني بخير، ومن خلفها أبي الذي ما زالت دموعه على وجهه يفعل مثل أمي وحينها بكيت أنا الآخر عندما رأيتهما يبكيان، فقال أبي: حمد لله على السلامة يا حبيبي، بتعيط ليه انت كويس وزي الفل مفيش فيك حاجة.

وقالت أمي: خلاص يا حبيبي انت بخير وهتخرج من هنا بالسلامه ان شاءالله قريب، هانت خلاص.

قلت: طب انتوا بتعيطوا ليه انتوا كمان؟ مش أنا زي ما بتقولوا كويس أهو ممكن كفايه طيب عشان متعبش أكتر!

قالت أمي: يا حبيبي دي دموع فرح، فرحانيين إنك قمت لنا بألف سلامة.

قال أبي: يلا يا واد قوم مش كفاية خضتنا عليك الفترة دي كلها! يلا عشان ماما عملالك البانيه اللي انت بتحبه، وصحبك تعبان ومبياكلش ولا يشرب حاجة إلا كل فين وفين ووزنه نزل للنص.

قلت: هو فين؟ هاته معاك يا بابا وانت جاي بكرا دا وحشني أوي.

قالت أمي: هجبهولك أنا بكرا بس قوم انت وشد حيلك يا حبيبي.

قلت:ماما هي ليلى ومامتها دخلوا عندي هنا واطمنوا عليا ومشيوا؟

نظرات متبادلة بين أمي وأبي وكأنهم لا يريدون إخباري بأنها لم تأتِ، فكررت سؤالي مرة أخرى.

قال أبي: لا يا محمد مجتش، سيبك منها بس دلوقتي ولما تخرج نشوف الموضوع دا.

قلت له: ماشي يا بابا.

دخلت الممرضة في هذا الوقت وطلبت منهم الخروج لأن حان ميعاد تغيير المحلول والأدوية التي كتبها الطبيب المعالج الذي يتابع حالتي، فاقتربت مني أمي ووضعت يدها على جبيني وأمسكت بالمصحف ووقفت تقرأ وهي تضع يدها هكذا لحوالي خمس دقائق أخرى ثم خرجت ومعها أبي، وبدأت الممرضه بتغيير المحلول وإعطائي الدواء ولم تأخذ وقت كبير حتى خرجت وطلبت مني الراحه التامه والنوم ليتم شفائي سريعًا ويجب أن ألتزم بتعليمات الدكتور وحديث من هذا السياق الذي تعودنا على سماعه في كثير من الأفلام والأعمال الدرامية..

خرجت الممرضة وبقيت وحيدًا أحاول فهم واستيعاب ما حدث في الأيام السابقة وتجميع الأحداث والمشاهد التي رأيتها والتي ما زال جزءً من عقلي لا يستطيع تصديق أن كل ما قد مرَّ كان مجرد غيبوبة نتج عنها هذا الكم من التخيلات!، حتى تذكرت شيئًا هامًا هو الذي سوف يحدد حقيقة ما رأيته.. الرواية نعم أنا كنت قد بدأت بكتابة بعض الصفحات فيها، فماذا لو ما كتبته كان بالفعل موجود وقلمي في موضعه كما تركته؟

مرّت حوالي عشرة أيام على استفاقتي من الغيبوبة وبدأت أشعر بتحسن وتقدم في حالتي الجسدية، وطلبت من أمي أن تحكي كل شيء منذ قدومي إلى المستشفى إلى الآن..

وقالت أمي: يا ابني احنا كنا قاعديين في البيت وجالنا تليفون من المستشفى إنك عملت حادثة واتنقلت المستشفى من ساعة والظاهر إن هما طلعوا رقم بابا من على موبايلك قمنا لبسنا وجرينا على المستشفى لقيناك في أوضة العمليات والدكتور بيقول إن الحالة خطيرة والحادثة عملت نزيف في المخ وبيحاولوا يوقفوا النزيف وقالنا ندعي المرحلة دي تعدي على خير لأنها أخطر مرحلة دلوقتي طبعًا كل أهلنا وأصحابك كانوا واقفيين على باب أوضة العمليات منهاريين وبيدعولك وبعدها بكام ساعة الدكتور خرج وقالنا إن الحمد لله قدروا يوقفوا النزيف بس انت دخلت في غيبوبة والدكتور قالنا مش هتطول فيها وقعدت حوالي تقريبًا ٣ اسابيع مبتفتحش عينيك ولا بتتحرك وعايش على الأجهزة

بس الدكتور كان بيطمنا إنك هتفوق منها وهتبقى كويس، لحد ما الممرضة كانت بتغير لك المحلول وشافتك وانت بتفتح عينيك وخرجت تقول للدكتور إنك فوقت قعدنا نعيط أنا وبابا ونحمد ربنا إنك فقت بألف سلامة، ماحنا كنا معاك في الأوضة بنقرأ قرآن وندعي ربنا يعدي الغيبوبة دي على خير، بس بعدها دخلت في غيبوبة تانية لكن مطولتش فيها قعدت لك يومين تلاتة وفقت وخرجت من مرحلة الخطر وبقيت بخير يا حبيبي.

- ماما لتالت مرة بسألك.. ليلى ومامتها دخلوا عندي هنا واتكلموا معايا؟
- يا ابني انسى بقى ومتتعبنيش وتتعب نفسك عُمر اللي راح ما هيرجع تاني.
- لا يا ماما متقوليش كدا، متظلميهاش هي أكيد في حاجة منعاها أو محدش قالها ومعرفتش اللي حصل بس لما تعرف هتجي لي.
- يا حبيبي متعلقش نفسك بحاجة عمرها ما هتحصل وارتاح وريح عقلك من التفكير فيها شوية عشان تخرج من هنا وترجع بالسلامة لأهلك واصحابك.
- خلاص يا ماما اللي تشوفيه، أنا دماغي تقيله وعايز انام شويه.
- أنا هخرج أطمن اللي بره واقعد معاهم ولو عوزت حاجه دوس على زرار الجرس اللي جنبك.

خرجت أمي وأغلقت الباب من خلفها وأنا لا أريد النوم ولا أي شيء، لكن كانت كلماتها تنزل مثل السيف على قلبي وهي لا تنتبه لما تقوله وملت برأسي تجاه الشرفة التي كانت في هذه الغرفة. لم يمر الكثير من الوقت وأنا أميل برأسي مرة أخرى تجاه باب الغرفة حتى وجدتها بنفس المنظر الحزين الذي كانت عليه أثناء رؤيتي لها في الغيبوبة تقف أمام الباب وتنظر إلى السرير ولا تنطق ولكن عينيها كانتا تقولان كل شيء..

ـ أنا قلت لماما انك هتيجي لما تعرفي ومكنتش مصدقاني وظلمتك.

ظلت في مكانها ولم ترد واستمرت في النظر إلى عيني ووجهي الذي ابتسم عند رؤيتها، فقلت لها: مبترديش عليا ليه وليه اتأخرتي في زيارتك دي أوي كدا؟

ـ أنا متأخرتش أنا معاك من أول ما جيت هنا وبتطمن عليك أول بأول.

قلت متعجبًا: ازاي؟ أومال ماما بتقولي إنك ماجتيش خالص ليه!

ـ معلش بس ممكن تلاقيها كانت مش مركزة في الناس الموجوديين من كتر زعلها وقلقها عليك.

ـ أيوه صح معاكي حق، شوفتي حصلي إيه؟ مش هنرجع بقى وكفاية كدا..

- أنا في المكان الأحق بيا دلوقتي.. إنساني يا محمد وريحني أنا مش مرتاحة أكتر منك!!
- انساكي؟ إنتي للدرجة دي مش عايزاني وكرهاني؟
- أنا بقول كدا عشان كنت بحبك حُب محدش هيقدر يحبهولك من بعدي! بس أنا مش عايزاك تعيش الباقي من عمرك بتتعذب بسببي.
- مش لما اكون عايش أصلًا! مين قالك إني عايش؟ أنا من ساعة ما بعدتي وبموت في اليوم ألف مرة، بشوفك وانا لوحدي في أوضتي، وفي وشوش الناس في الشوارع، وكل حاجة حلوة بشوفك فيها..
- الزمن هينسيك كل حاجة بس ابدأ انت وشوف حياتك وهتلاقي حد أحسن مني يعوضك عن كل اللي انا اتسببت لك فيه.
- انتي ازاي فاكرة كل حاجة بالسهولة دي؟ اللي بتتكلمي فيه دا مش هيحصل ولو عشت مية سنة كمان!
- كفايه يا محمد أنا مش قادره ارتاح وانا شايفاك كدا لا طايل سما ولا أرض!

قلت ودموعي على وجهي: ارجعي لي وكل دا هيتصلح وهبقى كويس.. والله هبقى كويس.

ـ خلاص مبقاش نافع! فات الآوان وعمرنا ما هنبقى لبعض.

التفت بوجهي بعيدًا عنها والكلام يرفض الخروج من فمي واكتفيت بالبكاء لدقائق معدودة..

ثم قلت: انتي ليه بتعملي معايا كدا؟ أنا عمري ما حبيت حد زيك! ليه بتعذبيني معاكي بالشكل دا؟ انتي بتعاقبيني عشان حبيتك ومقدرتش احب غيرك ومش قادر حتى أشوف غيرك؟

لم ترد على أي شيء من الذي قلته ولكن ليس لأنها لم تسمعه بوضوح أو لا تجد ردًا لحديثي لها،لكن عندما التفت إلى المكان الذي كانت تقف فيه أمام باب الغرفة لم تكن موجودة! غادرت الغرفة دون أن أشعر بها لتتهرب من الرد على أسئلتي الذي من الواضح أنها كانت تُأنب ضميرها.

بعدها بحوالي خمس دقائق وجدت أبي يفتح باب الغرفة ومعه دكتور طاهر الذي كان يحمل باقة من الورود الزرقاء الذي كان يعلم أنني أحبها ووضعها بجانبي في هدوء، وقال: ألف سلامة يا محمد، يلا شد حيلك كلها كام يوم وتخرج.. لازم هنقعد مع بعض أول ما الدكتور يكتبلك على خروج.

ـ الله يسلمك يا دكتور، انا اللي محتاجك والله في حاجات كتير حصلت عايزيين نتكلم فيها.

ـ خلاص وقت ما تخرج من هنا كلمني وانا هجي لك البيت على طول مش لازم العيادة كفايه اللي حصلك من الطريق اللي هناك.

ابتسمت وقلت: لا يا دكتور ربنا يخليك، أنا هجيلك مايصحش والله.

ـ يا استاذ محمد أنا جايلك البيت أزورك ولا انت بخيل ومش عايز تضايفني في بيتك؟

ضحكت وقلت له: لا أبدًا دا انت تنورنا والله، خلاص اللي تشوفه.

ـ خلاص يبقى اتفقنا أول ما تروح بيتك كلمني على طول، وانا هتابع حالتك مع والدك بردو.

قلت له بابتسامة: شكرًا على اهتمامك وانك جيت لحد هنا يا دكتور.

ـ انت صديق وأخ صغير ليا مش مجرد حالة عندي بتتعالج وخلاص، عيب تشكرني اني جيت لك..

خرج الدكتور طاهر ودخل خلفه مباشرة الطبيب المُكلف بعلاجي ليخبرني بخبرٍ سعيد.. وهو أنني سوف أخرج في خلال أسبوع، لكن سوف أستند على عكاز بسبب بعض المشاكل في ساقي الأيسر وسيكون بشكل مؤقت ومع جلسات العلاج الطبيعي سوف يتحسن الأمر وأستغني تدريجيًا عن العكاز وأمارس حياتي بشكل طبيعي.

لم يلفت انتباهي في حديثه سوى «**العكاز**»! أنا رأيت نفسي في الغيبوبة أستند إليه عندما خرجت من هنا!! فماذا يعني ذلك؟ أن العكاز هو بداية لتحقيق كل ما قد رأيته في الغيبوبة؟ أم ما حدث مجرد تشابه في الأحداث؟ ليبقى الفصل الأخير في الرواية هو الخيط الذي سيفصل بين كل هذه الألغاز والاستفهامات التي بداخلي.

مرَّ الأسبوع الذي حدده الطبيب المعالج بسرعة وكانت كل يوم تأتيني ونتحدث وفي كل مرة ترفض الرجوع وتخرج من الغرفة أثناء انشغالي بأي شيء دون أن أشعر بها، ودخلت أمي لتجمع ملابسي وأشيائي الخاصة من الغرفة لنستعد للعودة إلى منزلنا، دخل الطبيب وقال: حمد لله على السلامة يا أستاذ محمد هتوحشنا والله، متنساش تتابع عند الدكتور اللي كتبت لك عنوانه وارجوك متهملش جلسات العلاج الطبيعي عشان ميحصلش حاجات لقدر الله مش هتبقى حلوة عشانك.

ـ الله يسلمك يا دكتور ومتقلقش أنا هعمل اللي عليا وان شاء الله تعدي على خير وهبقى كويس.

ـ إن شاء الله، استأذن انا بقى واسيبك مع أهلك.

خرج الطبيب، وقالت أمي: الراجل دا محترم جدًا وتعب معاك أوي من أول ما جيت هنا للنهارده.

ـ باين من كلامه وشكله إنه فعلًا راجل كويس، ما علينا دلوقتي عملتي أكل إيه واحشني الأكل بتاعك.. وعلى

فكرة انتي بقالك كتير بتضحكي عليا وكل يوم كنتي تقولي انتي وبابا هنجيب لك صحبك وضحكتوا عليا الفترة دي كلها!

ضحكت وقالت: أولًا عملالك البانيه والمكرونة اللي انت بتحبهم، وثانيًا احنا سألنا الدكتور وقال ممنوع أصلًا الحيوانات تدخل للمرضى وقال هانت ويروح البيت ويقعد معاه براحته.

- ماشي ثبتيني أوي.. خلاص لميتي الحاجة كلها ولا نسيتي حاجة؟
- لا كله تمام كدا، استنى أجيبلك العكاز وآجي عشان نخرج، على فكره بابا مع أصحابك وقرايبنا كلهم برا مستنينك.

خرجت أمي ولم تغلق باب الغرفة بإحكام وأثناء ما أنا أنظر إلى الغرفة وأركانها نظرة الوداع الأخيرة، وجدتها تجلس على الكرسي القريب من الباب لكن هذه المرة كانت تبتسم على عكس كل المرات السابقة، يبدو أنها كانت تعرف أن هذا يومي الأخير في المستشفى..

- بقالي كتير مبشوفش ضحكتك.. انتي عرفتي اني خارج النهارده مش كدا؟
- أيوه عرفت ولازم تاخد بالك بعد كدا على حياتك وتلتزم بالجلسات زي ما الدكتور قالك عشان رجلك ترجع أحسن من الأول.

- إيه دا انتي اتكلمتي مع الدكتور كمان؟
- مش مهم اتكلمت مع مين، المهم إنك خلاص بقيت كويس وهتخرج من هنا بقى.
- يعني خلاص كدا مش هشوفك تاني؟
- كفايه كدا.. أنا كنت هنا كل يوم من أول ما دخلت انت المستشفى عشان أطمن عليك.
- لا مش كفايه احنا هنفضل نتقابل كل يوم زي ما عودتيني مفيش حاجه هتتغير تاني!
- مش بإيدي مانت عارف!.

خرجت من الغرفة بعد أن ودعتني ووصتني أن أعود للعمل من جديد وأن أنساها ونفس الذي تقوله في كل مرة..

مرت ساعات قليلة ووصلت البيت ومعي أبي وأمي وتركنا كل من معنا على باب المنزل لأرتاح اليوم ويأتون لزيارتي غدًا، وبمجرد دخولي من باب الشقة وجدت صديقي يقف كعادته فوق الكرسي الموضوع بجانب الباب وعندما نظرت إليه رفع صوته ونزل من على الكرسي وظل يحُك رأسه في قدمي ويدخل من بين أقدامي ويستند بيديه على ساقي وينظر إلى فجلست على الأريكة فقفز وجلس بجانبي فدعكت رأسه وظهره كما يحب وداعبته كثيرًا حتى أحضرت أمي الطعام ووضعته على السفرة وجاء أبي لأستند عليه حتى ساعدني في الجلوس على السفرة، رائحة أكل

أمي والسفرة والمنزل وكل شيء هنا أفتقده بشدة.. وهذا ما جعلني أأكل كثيرًا وكأنني لم أأكل منذ شهور قبل الآن. ولم أصبر كثيرًا بعد أن انتهيت من طعامي ودخلت مسرعًا إلى غرفتي وأغلقت الباب بالمفتاح من خلفي وجلست على المكتب وبدأت بالبحث عن روايتي وسط الكتب ويداي ترتعشان خوفًا من النتيجة! فالآن سوف أطمئن على سلامة عقلي بعد كل ما مررت به.. وجدتها أسفل بعض الكتب وأمسكت بها وكنت أرتعش والعرق يملأ جبيني ووجهي وقبل أن أفتحها أمعنت النظر فيها وأنا أرجوها أن تكون على الوضع الذي تركتها عليه في الغيبوبة وأرجو هذا من الله، وفتحت الرواية ومررت بعيني بين صفحاتها على كل ما قد كتبته من قبل حتى وصلت لورقة مكتوب عليها «**الفصل الآخير**» وطويتها بيدي لأنظر فيما خلفها وأجد...

أجد صفحات فارغة تمامًا لا يوجد بها أي حرف أو نقطة حتى وكأنني أراها الآن لأول مرة وكل ما كتبته وأنا في مرحلة الغيبوبة لم يوجد له أثر في الكشكول الخاص بالرواية ولا أنا أتذكر أي كلمة أو جملة وضعتها من قبل في هذه الصفحات.. فماذا يعني كل هذا؟ كل ما رأيته كان من أثر الغيبوبة وكانت هلاوس! هل بالفعل عقلي مسه الجنون؟

أنا الآن أشعر أنني خسرت كل شيء.. حبيبتي التي كانت الأمومة والوطن التي سلبت معها قلبي وحُطام عقلي الذي كنت أعيش به، حتى بدأت خيبات الأمل تملأني وأشم رائحة الموت

في كل مكان وكأنه هو الحل الآن.. فأنا أتعذب في هذه الدنيا أعيش بجسدي فقط وكل شيء بداخلي قد مات ولن يعود من جديد مهما حاولت، ففي كل مرة أعاند فيها الواقع أخسر جزءً آخر من عقلي وكأنني أدمنت الخسارة وعقلي قد انتهي منه العقل.

مرت الأيام والأسابيع وكنت أذهب ثلاث مرات في الأسبوع الواحد للجلسات، لم يفتني جلسة واحدة حتى عادت ساقي كما كانت، وكان دكتور طاهر يتابعني هاتفيًا ويزورني في البيت أسبوعيًا وكانت هي تأتيني في أحلامي ولا أراها أبدًا في أي مكان كما تمنيت، حتى أنني ذهبت إلى كل الأماكن التي كانت تجمعنا وبحثت عنها فيها ولكن في كل مرة لا أجدها، حتى أنني كنت على وشك أن أحمل صورة لها وأمشي بها في الشوارع وأسأل المارة عنها على أمل أن يكون رأها أحد ويريح قلبي..

حاولت تخطي كل هذا وأنغرست في عملي ليلًا ونهارًا كمصور وأصبحت أحمل نفسي أكثر من طاقتها ظنًا مني أن هذا سوف يجعلني أنساها تدريجيًا كما طلب الجميع مني وعلى رأسهم هي، لكن عند كل صورة أتخذها لأي فتاة سواء في حفل زفاف أو في إعلان أو أي شيء آخر كنت عندما أضع عيني في الكاميرا أراها هي من تقف أمامها وعند رفع عيني من الكاميرا لأتحقق منها لا أجدها!، ولم يقف الأمر على هذا فقط بل أصبحت أرى خالد صديقي من جديد في أماكن متفرقة وهو يبتسم لي، وعندما أذهب إليه وأنادي عليه: خالد! أجد شخصًا من المارة لا أعرفه

في كل مرة حتى ظن الناس أن عقلي بدأ بالجنون فعليًا وأصبح يصور لي أنني أرى أشخاص غير موجودين بالفعل، لكنني متأكد من سلامة عقلي ونظري أنا رأيتهم بالفعل وعلى يقين تام من رؤيتهم! كنت أحكى لدكتور طاهر كل ما أراه يوميًا في عملي وفي غرفتي وما يقوله الناس عني وكان يحلل ويفسر كل ما أراه علميًا حتى أنني من تكرار سماعي تحليلاته لنفس المواقف أصبحت لا تُأثر على حالتي النفسية تمامًا، وهو ما شعر به دكتور طاهر ودفعه في إحدى زياراتي ليقترح علي أن أذهب إلى مستشفى لعلاج الأمراض النفسية لمدة شهر واحد فقط، وقال: بص اعتبر نفسك في إجازة ورايح تريح عقلك ونفسيتك وترتاح من ضغط الشغل اللي انت حطيت نفسك فيه واللي كان السبب في كل التهيؤات والهلاوس اللي انت شوفتها الفترة اللي فاتت دي، روح وجرب ووقت ما تحب تمشي هتمشي عادي! انت مش مجبور انك تقعد هناك إنت رايح بكامل إرادتك وكامل قواك العقلية كمان.

- تفتكر هو دا الحل يا دكتور؟ اني اقعد في مكان معرفش حد فيه!
- متقلقش هتتبسط هناك خصوصًا إن المكان نضيف والرعاية الصحية هناك هتعجبك وممكن تقعد أكتر من شهر كمان والدكاتره هيتابعوك يوميًا هناك وأنا هشرف على المتابعة بتاعتهم بنفسي وهشوفك لو حد مضايقك أو محتاج حاجه بالموبايل كدا.

- خلاص يا دكتور أنا موافق، هقولهم في البيت وأحضر الشنطه وأجيلك ونمشي على هناك.
- إن شاء الله وهترجع من هناك زي الفل وموضوع التهيؤات دا هينتهي بالمرة.

أنهيت حديثي معه وقد أعجبتني فكرته وقلت أن هي الحل لكل هذه المتاعب وأنني بالفعل أحتاج إلى الراحة، ذهبت إلى المنزل وأخبرتهم بحديث دكتور طاهر معي واقتراحه الذي أراه مناسبًا وكانوا في أول الأمر معترضيين على تواجدي في مستشفي أمراض نفسية بحجة أن المتواجديين هناك في هذه الأماكن «**المجانين**» فقط، ولكن شرحت لهم الأمر وأقنعتهم بكل شيء بصعوبة لكنهم اقتنعوا ووافقوا، وفي اليوم التالي كانت أمي قد أنهت تحضير حقيبة السفر ووضعت بها الملابس وأغراضي التي طلبت منها أن تضعها وودعتهم بقبلة على يديهم وغادرت المنزل وذهبت إلى الدكتور طاهر الذي أخذني معه في سيارته إلى المستشفى وأخبرني في الطريق بوضعي في غرفة بها شابين الأول يُدعى «**شادي**» والثاني «**عمرو**»، وعندما سألته عن سبب وضعي مع أشخاص لا أعرفهم وأنه من المفترض أن أجلس في غرفة بدون أحد، قال: يعني أنا جايبك هنا تتعالج من هلاوس كان السبب الرئيسي فيها الوحدة عشان بردو أقعدك لوحدك واللي بتشوفه بره تشوفه هنا تاني! يبقى استفدنا إيه؟ لازم تقعد مع حد وتحكوا مع بعض وتختلط بالناس كدا من تاني؛ عشان دا هيفيدك

أوي وهيساعد على تقدم حالتك بشكل ممتاز بس انت امشي مع التعليمات اللي هيطلبها منك الدكاتره وهتبقى أحسن إن شاء الله..

وكان لحديثه القدرة على إقناعي بالجلوس في هذه الغرفة مع هذين الشابين، ووصلنا بالفعل إلى المستشفى وطلب الدكتور من أحد العامليين هناك أن ينقل الحقيبة إلى الغرفة رقم ١٧٧ واصطحبني بعد ذلك إلى الغرفة ليعرفني على أصدقائي الجدد، دق على باب الغرفة ليستأذن في الدخول.

ثم قال: صباح الخير يا شباب.

وتبادلوا التحيات والأسئلة حول مدى تقدم حالتهم الصحية وكانت إجابتهم مبشرة للغاية، ثم قال مرة أخرى: آه نسيت اعرفكوا ببعض، دا محمد شغال مصور فوتجرافر.. جاي يقعد معاكوا فترة صغيرة يرتاح فيها لو معندكوش مانع.

قال أحدهم مبتسمًا وكان يرتدي نظارة وصاحب بشرة سمراء نوعًا ما: لا يا دكتور ولا أي مانع دا ينورنا والله كفايه إنه جاي مع حضرتك وشكله راجل محترم وهنساعد بعض.

قال له الدكتور: شكرًا يا عمرو على الكلام الجميل دا.

قال الآخر ضاحكًا أيضًا وكان صاحب شعر ناعم طويل وطويل القامة: احنا كنا عايزيين حد جديد يقعد معانا نحكي مع بعض بدل ما انا وعمرو في وش بعض بقالنا كتير كدا لحد ما زهقت منه.

ضحك الدكتور وقال: متشكرين يا عم شادي وهو من ناحية هيكلمكوا فمتقلقوش هو هيخرجكوا من جو الكآبه اللي انتوا فيه دا، محمد دمه خفيف وهتتبسطوا مع بعض كلكم.

كنت أقف وهم يتحدثون إلى بعضهم عني ولا أرد على أحدٍ منهم بل كنت أكتفي بالابتسامات في وجوههم، فأنا ما زلت أشعر برهبة المكان ورهبة الوضع الجديد، خرج الدكتور وتركنا مع بعضنا لنتحدث ونحاول أن نتعايش مع بعضنا وكانت الأمور تسير في طريقها الصحيح ومرَّت حوالي عشرة أيام نتحدث بشكل ودي وطبيعي وما زالت لا أعلم سبب مجيئهم إلى هنا ولا هم أيضًا يعلمون.

كل ليلة وأنا هناك كانت لا تمر دون أن أسأل نفسي كيف وصلت إلى هذا؟ ما نوع الحُب الذي يؤدي إلى الفتك بالإنسان وتدمير حياته لهذه الدرجة؟ إلى متى.. إلى متى سأحاول تكذيب كل من حولي وأنا أعرف الحقيقة تمام المعرفة منذ سنواتٍ! فالجميع يعتقد أنني أصبحت مريضًا أنكر ما حدث في الحقيقة وأتوهم رؤية أشياء لم تعد موجودة الآن وأخرى لم تكن موجودة من الأساس، لكنهم جميعًا ينظرون بأعينهم من بعيد لا يحاولون الاقتراب مني وينظرون بقلوبهم لما أشعر به ليعطوني عذرًا لما أنا عليه الآن.. وكان هذا السبب خلف اعتزالي الاختلاط بالناس وإخراج ما بداخلي من أوجاع لأي شخص لأنني أعرف أنهم يسمعون من باب الفضول لا المساعدة.

في إحدى الليالي التي كنا نجلس فيها أنا وعمرو وشادي ولا نجد ما يسلينا لنفعله والجو أصبح مملًا جدًا من تكرار ما نفعله يوميًا، قال شادي: طب ممكن تقولنا يا محمد انت هنا ليه؟ إيه المشكلة الكبيرة اللي تخليك تيجي تقعد هنا مع ناس متعرفهاش ومكان غريب عليك كدا ومستشفى ودكاترة وجلسات كل يوم وكل دا مع إنك كان ممكن تتعالج من غير ما تكون هنا.. وأنا آسف إني بتدخل في أمورك الشخصية بس اهو أدينا بنتسلى عشان مانزهقش.

قلت: لا يا شادي عادي مفيش حاجة، بس ما تحكي لي انت الأول عشان اتشجع كدا واحكي انا كمان.

قال: بس كدا؟ خلاص اتفقنا وكدا كدا أنا وعمرو يعني عارفين حكايات بعض بس هنقول لك.

ثم بدأ حكايته: أنا عيشت من وانا صغير مع جدتي في بيتها ومكنش في حد عايش معانا غير أختي الأصغر مني وكانت جدتي بالنسبه ليا أبويا وامي وكل قرايبي وأهم حاجه في حياتي؛ لأن بابا وماما كانوا طول السنة مسافرين بره مصر شغالين بيحاولوا يأمنوا مستقبلي انا واختي ومكناش بنشوفهم غير كل كام شهر يومين تلاته بالظبط واستمر الحال دا لحد ما وصلت لمرحلة الكلية وانا طالب في كلية الهندسة وكل ما بكبر اكتر الحمل بيزيد عليهم في الغربة أكتر واكتر لحد ما بعد سنين طويلة من الغربه قرروا يرجعوا ويكملوا كفاحهم هنا في مصر واهو يبقوا وسطنا، وكلمونا قبل ما

ينزلوا بأسبوع وبلغونا بالخبر اللي كنا طايريين من الفرح بعد ما سمعناه انا واختي وجدتي وقعدنا طول الأسبوع دا نجهز في البيت والأكل ونجهز الأوضه بتاعتهم وننضفها وظبطنا كل حاجة ليهم وكنا بنشتغل كدا واحنا مبسوطيين ومش حاسين بتعب بعد ما خلاص اللي كان نفسنا فيه من زمان هيتحقق وهنعيش مع بعض كلنا زي أي أسرة عادية، ميعاد طيارتهم كان الساعة ١١ وكنا كلنا طول الليل مش عارفيين ننام من الفرحة ونزلنا من الساعة ٧ وكلمنا سواق مخصوص جه خدنا أنا واختي وجدتي ووصلنا المطار وطلبنا منه يستنانا نرجع معاه، وفضلنا شوية في المطار جدتي كانت بتحكيلنا فيهم عن ذكريات فرح بابا وماما واهو بتسلينا لحد ميعاد الطيارة ووصلت الطيارة الحمد لله واترمينا في حضن بابا وماما اللي كانوا واحشينا.

وبدأت دموع شادي تملأ وجهه ويتكلم وهو يبكي كالأطفال وقال: خرجنا من المطار وربطنا الشنط وركبنا كلنا العربية واتحرك السواق وفي الطريق كان في عربية نقل كبيرة ماشيه جنبنا وهي بتغير الاتجاه السواق عديم الضمير بتاعها الظاهر كان شارب مخدرات ويا دوب بس لمس العربية واحنا ماشيين بسرعة والعربية اتقلبت على الطريق وانا وقعت من الشباك على الطريق وكلهم ماتوا.. وانا اللي عيشت لوحدي، زادت دموعه وصوت بكائه وقال: ليه؟ ليه انا بس اللي اعيش؟ ليه مموتش معاهم وارتحت من العذاب اللي انا عايش فيه دا! عشان اتعذب لوحدي يعني واشوفهم كل يوم في

كل مكان على كذا هيئة!! ليه القدر بيعمل كدا فيا؟ أنا هنا عشان كدا! عشان مش قادر أعيش لوحدي مش قادر ابطل تفكير فيهم وكل يوم بيجولي كلهم بشوفهم ليل ونهار قدامي مش قادر انسى اللي حصل كل ما احاول انسى ألف حاجه بتفكرني، وبدأ بمسح دموعه وقال: لحد ما اقترحوا عليا ولاد الحلال آجي هنا وهلاقي علاج لكل دا، والحمد لله بقالي هنا حوالي ٥ شهور وبدأت كل حاجه تروح بالتدريج والعلاج جاب نتيجة معايا والدكاترة قالولي إن كلها شهر ولا اتنين إن شاء الله واخرج من هنا واقدر اعيش حياتي من جديد في هدوء وأكمل أخر سنة ليا في الكلية واتخرج واشوف حياتي..

تفاعلت مع شادي وكانت عيني تدمع معه وعمرو كذلك وحاولنا تهدأته حتى هدأ وطلب مني أن أحكي لهم أنا الآخر حكايتي والسبب وراء مجيئي هنا..

وجدتها فرصة لأخراج كل التفاصيل وكل شيء كنت أخفيه بداخلي معهم فأنا كنت أحتاج إلى وجود صديق أفرغ معه كل ما بداخلي وجلست أحكي لهم عني كل شيء بالتفصيل حتى أنني تخطيت الساعة ونصف احكي وأجمع الأحداث في ذهني فأعاود بعد ذلك واستكمل حتى انتهت حكايتي.. وجاء الدور على عمرو والذي كان يبدو عليه أنه يغلب عليه طابع المرح، قال عمرو: هجبلك الحكاية من الأول بقي.. بص يا محمد انا كنت من الناس الشاطرة أوي في ابتدائي واعدادي لحد تانيه ثانوي كدا وكنت لا

بشرب سيجارة ولا اطيق اشم ريحة التدخين وكنت ملتزم أول بدراستي ومكنتش بقعد حتى على قهاوي خالص، لحد ما في يوم كان عندي درس واتلغي والناس اللي كانوا معايا في الدرس قالوا بدل ما نروح ونزهق من القعده في البيت نطلع على القهوة نقعد هناك واهو القعده هناك هتبقى حلوة، طبعًا هما عارفيين رأيي من قبل ما يعرضوا الفكرة اني مش هرضي لكن قعدوا يتحايلوا عليا ويقنعوني لحد ما روحت معاهم وقعدنا ولعبنا طاولة وشطرنج وقضينا يوم حلو اوي، وبقيت في الوقت الفاضي اروح واقعد هناك حتى لو مفيش حد من اللي اعرفه هناك وواحده واحده بدأت اشرب شيشه بعد لما مكنتش بقدر اشم ريحتها، والموضوع اتطور معايا ومبقتش اروح دروس واهرب واطلع على القهوة اقعد مع ناس معرفهاش كل ما اروح بلاقيهم هناك مبيتحركوش من على القهوة وبدأوا واحده واحده يحاولوا معايا اشرب حشيش وكالعاده فيأول كل حاجه الرفض القاطع وبعد كدا من كتر الوسواس اتشد للطريق واشرب والحشيش بعد كدا بقى بانجو وبعد كدا بقى برشام ولفيت على كل أنواع المخدرات لحد الخمره كمان، وبقيت بحتاج فلوس أكتر لأن المصروف العادي دا ميكفيش حق علبة سجاير، أومال المخدرات دي بقى هصرف عليها منين؟ بقيت آخد فلوس الدروس واجيب بيها مخدرات ومروحش الدروس وفي أوقاتها اقعد على القهوة مع الناس المقيميين هناك اللي سحبوني للسكة دي وكل دا وكنت

داخل على الثانوية العامة وانحرفت اكتر واكتر ومجبتش مجموع وفي الآخر دخلت معهد سنتين وكل سنة بسقط وخلاص جسمي نزل مبقاش موجود وصحتي باظت وبقت اكح كتير في البيت وبابا لاحظ كل دا عليا وخدني بالعافية وعملي تحليلات واشعة وعرف اني مدمن وأهلي اتكلموا معايا والناس اللي بحبهم اتكلموا معايا لحد ما رجعوني لعقلي تاني وعرفت وفهمت ان كل دا من أصحاب السوء وان انا مفكرتش ومشيت وراهم من غير ما اعمل حساب لآخرة طريقي دا هيبقى إيه وهيوديني على فين، وواحد صاحب بابا الروح بالروح كان متابع حالتي معاه من الأول وقاله يجبني هنا ولو انا مش راضي ممكن يجبوني بالعافية وأساليب متخلفه كدا كتير، لكن انا عشان من جوايا نفسي اتعالج من كل القرف اللي وقعت نفسي فيه دا جيت هنا بنفسي ومخدتش حد معايا غير بابا وشنطة هدومي وقلت لهم انا جاي اتعالج واهو الحمد لله بقالي ٤ شهور هنا وأغلب السم اللي في جسمي خرج وصحتي بدأت الحمد لله ترد تاني وجسمي يرجع لطبيعته، والدكاترة هنا متابعيين معايا بالجلسات النفسية دلوقتي عشان يهيأوني للتعامل مع الناس بره ويدوني محاضرات انا وناس هنا جايين لنفس السبب حوالين المخدرات وأضرارها وانا فعلًا اقتنعت بكلامهم وبيأثر فيا وهانت بردو واخرج إن شاء الله.

قلت له: أنا بحييك على عزمتك وانك عندك إرادة تتخلص من حاجة تعباك وترجع لحياتك تاني.

واستمر الحوار بيننا كل يوم، وبدأت أشعر أن الدكتور طاهر كانت وجهة نظره صحيحة فأنا الآن لا أراها كثيرًا لكني ما زلت أراها وبعد مرور شهر والثاني خرج شادي وبعدها بحوالي أسبوعين خرج عمرو، وبقيت أنا وجلست مع شخصين أخرين وبعدها بحوالي شهر كنت قد أتممت ثلاثة شهور ونصف من العلاج والجلسات مع الأطباء المتواجديين هناك، حيث قالوا أنني قد تم شفائي وأعطوني شهادة تثبت ذلك، وفي آخر يوم حضر دكتور طاهر إلى المستشفى وطلب مني أن نجلس سويًا في مكان خارج حدود العيادة والمستشفى وكل الأماكن التقليدية التي كنا نجلس فيها من قبل فاختار أحد الكافيهات القريبة من بيتي وجلسنا هناك: حمد لله على سلامتك يا بطل دلوقتي انت بقيت كويس والتهيؤات وكل حاجه راحت والحمد لله العلاج جاب نتيجة حسب كلام الدكاترة الكبار اللي هناك اللي تابعوك.

كنت أريد أن أخبره أن الأمر ليس كما في مخيلته وأنني ما زلت أرى كل شيء لكن بشكل أقل، الحمدلله وشكرًا يا دكتور على تعبك معايا.

- انت راجل مؤمن بالله وعارف إن كلنا مسيرنا راجعيين للي خلقنا!
- ونعم بالله، في إيه يا دكتور قلقتني!
- أنا كنت خايف عليك من أعراض الصدمة طول الفترة اللي فاتت دي بس انت لازم تواجه نفسك دلوقتي

بالحقيقة اللي انت عارفها ومتأكد منها انت خلاص بقيت كويس واتعالجت.. محمد مامتك قالت لي من فترة كبيرة إن «**ليلى**» حبيبتك ومامتها مدام «**سلمى**» عملوا حادثة وماتوا مع بعض بقالهم حوالي ٣ سنين وانت ساعتها كان عندك صدمة عصبية وكنت عايش على المهدأت ومكنتش بتنام إلا بالأدوية .. وانت كنت بتعاند نفسك وأهلك وكل الناس ومش راضي تصدق مع إنك كنت معاهم في المستشفى يوم الحادثة وشفت كل حاجة بعينيك.

شعرت وكأن المكان يدور بي من حولي وفتحت عيني عن آخرها وانهالت دموعي مني في محاولة لاستدراك ما يقوله الدكتور: لأ انت كداب هي عايشه وكلكوا كدابين وبتضحكوا عليا.

ـ اهدى يا ابني مش كدا خلاص هي عند اللي أحسن مني ومنك.

قلت له بصوتٍ تملأه العصبية ودموعي ما زالت على وجهي قبل أن أقوم من مكاني وأستعد لمغادرة المكان: اسكت انت كداب انت بتقول كدا عشان مش قادر تعالجني هي عايشه غصب عنك، انت ماما اللي قالت لك تقولي كدا، أنا عارف حركاتها دي عايزه تكرهني فيها.. بردو هي عايشه غصب عنكم كلكوا يا كدابيين.

ومشيت في الشوارع أبكي وأبكي وأتذكر كل ذكرى لنا معًا وأكلم نفسي وسط الناس في الشوارع حتى ظنوا أنني مجنون، كنت أمشي في الطرقات ولا أعرف إلى أين تسحبني قدمي، أمشي بلا هدف، واستمر الوضع على هذا حتى اقتربت الشمس من الغروب ووجدت نفسي أمام المقابر!!! ما الذي سحبني إلى هنا؟ كيف أتيت إلى هنا، سمعت صوتًا يهمس في عقلي وتسمعه أذنيّ يطلب مني أن أبحث عن مقابرهم بين هذه المقابر وبدون وعي مني انطلقت بين المقابر أبحث عن اسمها حتى كانت الصدمة مضاعفة آلالاف المرات عندما رأيت لوحتين رخام يُكتب على إحداهما: «**سلمى محمود أسامة**»، وعلى الأخرى «**ليلى إيهاب يحيى**»!!.

وكانت آخر كلماتي أمام قبرها بصوتٍ عالٍ وأنا أبكي وغارق في دموعي: سبتيني ليه لوحدي وانتي عارفه اني مش هقدر أعيش من غيرك.. إرجعي لي وانا مش هزعلك تاني، هعملك كل اللي انتي عايزاه وعارفه هاجي اتقدم لك واتجوزك أنا خلاص جهزت كل حاجة.. بس ارجعي، ارجعي عشان أقدر أعيش.. أنا عمري ما كنت أتخيل انك هتروحي مني، كنت عايز أقولك حاجات كتير إنك كنتي كل حاجه ليا في الدنيا، أمي وأختي وصحبتي وأهلي وكل حاجة، كنت عايز أقولك إنك وحشتيني وإني خلاص مبقاش ينفع أبقى مع حد غيرك، كنت عايز أعتذر لك على أي حاجه زعلتك فيها.. بس انتي مشيتي وسبتيني قبل ما اقولك كل حاجه.

كان هذا آخر ما حدث قبل أن أقع في حالة إغماء أمام قبرها بعدما رأيت الحقيقة التي نجحت في الهروب منها طوال السنين الماضية، وتعرف على هويتي بعض الزائريين في المقابر ونقلوني إلى المنزل وعشت في أيام عذاب أشد بكثير من كل الذي قد مضى وحاول دكتور طاهر أن يعالج الأمر هو والكثير من زملاءه واتخذ الوقت لإعادة تأهيلي من جديد أكثر من عام حتى عدت طبيعيًا بشهادة الجميع وبدأت أعود لعملي مرة أخرى وأمارسه بشكل جيد وكانت حياتي تسير في مسارها الشبه طبيعي.

وفي إحدى الليالي الباردة وأنا افكر في قصتنا التي شاء لها القدر أن تنتهي قبل ظهورها للنور، قررت استكمال الفصل الأخير من روايتنا التي عزمت على الانتهاء منها وتدوين كل ما قد مرَّ من أحداثٍ فيه لعلها تسعدها في قبرها بعد أن كانت ستسعدها ليلَ زفافها.

وها أنا الآن في عودة من جديد لغرفتي الكئيبة أكتب في آخر سطور روايتي بعد أن تم شفائي من كل الهلاوس والتهيؤات التي كانت عرضةً لها على مدار أعوام مضت وبشهادة العديد من الأطباء وعلي رأسهم دكتور طاهر ومعيَ شهادة صحية تؤكد شفائي، لكن أنا.. أنا ما زلت في حيرةٍ من أَمري كيف تم شفائي وكيف توفيت حبيبتي ورأيت قبرها بعيني وهي تقف إلى جانبي الآن!! نعم جانبي وترتدي فستانها الأزرق، وشعرُها الأَسود يضرب

جبينها، وتضع يدًا على كتفي والأخرى على شعري الذي كنت أعقدهُ خلف رأسي، وتنظر لي وهي تبتسم ابتسامة هادئة وتقول:.

«**متصدقهمش يا حبيبي أنا جنبك وفرحانة بيك إنك قدرت تخلص الفصل الأخير في روايتنا، ارجع شغلك ومتخافش مش هي دي النهاية..**».

كانت «**ليلى**» غير كل ليلة.. كانت متوهجة وعيناها تلمعان كلمعان النجوم في السماء، وجهها كالبدرِ ليلَ تمامه، شعرها يغطي كتفيها ويضرب جبينها، ابتسامتها أكاد أَجزم أن ليس لها مثيل في الأرض ولا في السماء، يدها مليئة بالدفء والحنان وكأنها تمتلك مفاتيح الراحة كلها بداخلها، بمجرد لمسها شعرت وكأنني كنت ليلة مظلمة وأتى القمر ليضيئها ويزينها، لكن حقًا أنا لا أعلم ما الذي يقف جانبي الآن.. هل هي حبيبتي ليلى أم ماذا....؟

الحبُ وعد، والوعدُ دينَ..
ولا يسدُ الدينَ سِوى الرِجال

لوغاريتم
للنشر و التوزيع
Logarithm
Publishing & Distribution